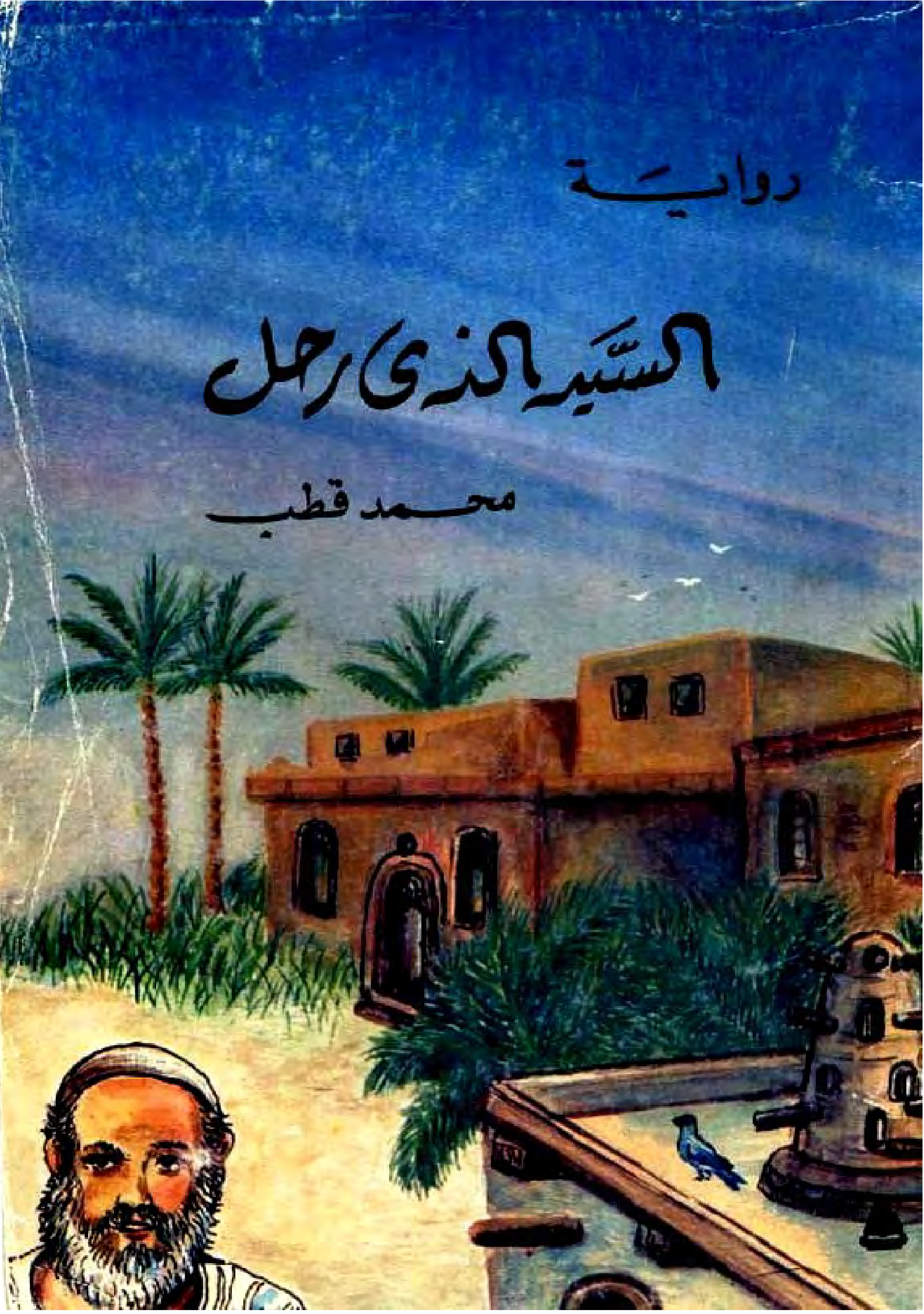

رواية
السيد الذي رحل
محمد قطب


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

رواية

السيد الذي رحل

محمد قطب



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

أهـــداء

الى ·· زوجتى ··

التى أعطت الكثير وما بخلت

وغزت بالحنان أركان القلب

وغمرت بالنور الآفاق المعتمة ··

الفصـــل الأول

- ١ -

مشى الهمود ثقيل الخطو ، وحط على القرية ، وأحكم الوثاق . وبدا الليل المظلم ، يتدحرج فى كل اتجاه ، يطمس وجه القرية بغلالته المعتمة . وكان ـ وهو يفرد أصابعه فى كل اتجاه ـ يزرع الرهبة ويخلع القلوب . لقد تلبست الحياة بموات يكاد لايفيق، فكفت عن البوح أنفاس ، كانت توحى بدبيب يومى . ومع ذلك فان الأذن المدربة على الرهافة ، لاتخطىء وهى تحدق فى الصمت تلك الهمسات الراجفة ، خلف الأبواب الموصدة ، وذلك النباح البعيد الذى يشبه العويل فى ليال خريفية مقبضة ، وهذا اللهاث المسحوب من صدور مشروخة لرجال طفقوا يتسحبون فى رعشة مخدرة يواكبه أحيانا صوت حوافر البهائم فى تتابع رتيب .. سرعان مايتلاشى .. ليبقى هذا الهسيس الليلى منسكبا من كل حنية ، راشحا من كل درب ..

.. فى مواجهة هذه العتمة القابضة ، لم يجد أمامه سوى مصطبة الجامع الكبير ، فجلس وتكور على نفسه ، وأراح بندقيته

الصدئة تحت فخذه · وأخرج خفير الناحية علبة الدخان ، وامتدت أصابعه تتحسس الدخان ، وتقيس المسافة ، وتزن المطلوب · كان الليل غويطا فى ظلمته ، وكانت أصـابعه مدربة على التعامل مع الليل وظلمته ، سحب ورقة « البفرة » البيضاء ، وملأها بالتبـغ وبرمها ·· ألصقها بلسانه ، وتأكد من متانتها ، ثم تفل وأخـرج قداحة صغيرة وأشعلها · لاح له الليل هاربا أمام جذوة خافتة · فتذكر خطيب المسجد وهو يرعب الناس بنار جهنم · وبنداوة لكلام السيد الحسيب فى أذكاره وهو يجبر خاطر المنكسـرين · أحس باطمئنان نفسى يداخله ، فمنذا الذى يمكن أن يقلق ليله البهيم ، أو يزاحمه فى راحته الحالكة هذه !

كور ملحفته وأسند رأسه ، واحتاط فقبض على البندقية ، وراح يطلب نوما عصيا · خـلا ذهنه من أى شىء ، فلم يعد فى القرية مايقلق العقل ويوقظه ، وما عادت العفاريت تمتطى ظهور البهائم ، وتسير فوق الجدران ·· منذ أن كثر الناس وازدحمت بهم البيوت واكتظ الخلاء بهم ، وهم الآن ينتظرون الأرض أن تبوح بالكنز · كان الفراغ يترقرق أمامه ممتدا كبساط معتم يغرى العين بالغفوة · والصمت يلف المكان حتى خيل له ، أنه يستطيع أن يسمع دبيب النمل الزاحف ·

فالصمت ثقيل ينسج حوله السكون والعدم · ومن يقوى عليه ؟ ومن يقدر على أن يخدش سياجه الصلد ، أو ينال من رهبته ؟ بل من عنده القدرة على فعل شىء ما يسحب من هذا الليل جبروته وسطوته !

انه الملاذ ، والستار ، فليمض الى النوم ·

أخذته غفوة تقف به عند حافة النوم ولاتنزلق ·

وجاءه نباح كلب متقطع ، فقطـــع الغفوة ، وســـحب منه نوما كان يطلبه · ما أروع النوم فى الليالى الهامدة الموحشة ·· ولكن النباح يزعج ··

كان الكلب يقعى على خلفيته ، مستندا على مقدمتيــه فى انتصاب وتصالب · بدت رأسه ثابتة متصـــالبة بعد كل نبحة · وكأنما يتربص بشىء ما ، أو يتسامع شيئا يأتيه من بعيد · جــاء اقعاؤه على رأس الزقاق بعد حنية الجامع مباشرة ، وعلى نتــوء ترابى ملتصق بالجدار ·

لم يتعود الخفير من الكلب مسلكه ، انه خبير به ، يأتنس بقربه مهما ابتعد ، أو صادته كلبة ، انه يأتيه ويظل فى مكانه دون ضجيج · ولكن ، ما باله هذه الليلة على غير العادة ، لاينقطع عواؤه حتى امتد وطال وزاحمه فى جلسته وغفوته · تمـــدد ، وأرخى أعضاءه ، وتحسس بندقيته ، وأزاح ملحفته ، وتناول حجرا صغيرا ورمى به الكلب فى غل · فلم يعد يجدى الزجر · ولكن النبــاح يروح ويجىء ، يتقطع ويتصل ، يئن ويتوجع ·· فى ولولة حزينة ، فداخله حزن يرف منسربا الى القلب ·

أحس بشىء مبهم يسحب روحه من جوفه ، ويأخذ برأسه فى كل اتجاه · استجمع قواه ونهض · خبط الأرض فى عنف فانزوى الكلب برهة · كان انزواؤه حركة ميل خفيف تجاه اليمين ، واستدارة بالرأس ناحية الجدار · ولكنه لم يبرح مكانه ، وظل مقعيــا ، لا مباليا · ثم عاود النباح بعد حين ، نباحا مغموســـــا بالتوجع والندب · بدا له كأنه ندابة فى مأتم ·

أراح الكلب رأسه بين يديه ، وظلت أذناه منتصبتين تلتقطان من رجع الصدى تراتيل الحزن ·

وارجف القلب فذكر الله وصلى على نبيه · وحاول أن يشغل باله بشيء ما ، ·· ولكن القلب لم يطاوعه ، انه يحدثه فى نغل موصول وراجف أن أمرا ما سيحدث · الليلة غاطسة الظلمة ، ككل ليلة ·· ولكن الترجيع فى النباح لا يتكرر دوما ·· انه يحدث فقط حين تنزل النازلة ، أو تحل زلزلة ·

على امتداد عمره الطويل لم يشهد الا زلزالا واحدا · خرج الناس ليلتها الى الخلاء ، يبحثون عن الأمان تسبقهم الكلاب والقطط · وعندما عادوا شقت النسوة بأصواتهن مساحات الفراغ الهائلة ·فلقد استغل اللصوص هلع الناس ، فسحبوا البهائم ·· وقتها لم ينبح كلب واحد ، ووقعنا فى عمل متواصل ·· ولم نهتد الى لص واحد ·· ومن وقتها والناس لايفارقون البهائم ·

أمال رأسه فصك مسمعه مداومة النباح ، وترتيل العويل · انه يلازم براح الجامع لايفارقه ، ويكاد يلتصق بجدار صابحة ·

أدار رأسه فجأة تجاه بيت قريب ، تنبه الى أن الكلب كلب صابحة · فلعنه جهرا ، ولعن صاحبته سرا ، ولكنه فى الحقيقة كلب السيد ، له هيبته وشموخه ·

امتدت يداه فى رجفة منفعلة ، وأشعل سيجارة مبرومة ·

طافت على ذهنه خيالات قديمة ··

حين خطا الخطوة الأولى الى دار صابحة ، كان يدفعه اليها ، رغبة مدمدمة ، وانفعال يحرق أعصابه ·· كان جديدا فى عمله ، وكان وسيما وفتيا ··

ارتشف الدخان وزام ، فزام الكلب ··

وهو يقف أمام الباب فى ليلة خريفية ·· لمح الكلب · كما يلمحه الآن ·· ليلتها هب الكلب عنيفا ، يهاجمه ، ويكاد يعقره ·

تسمر فى المكان ، لايدرى مايفعل ·· وخشى أن يفتضح أمره، فالوقوف أمام بيت صابحة والباب الموارب دائما ، فى هزيع ليل مظلم ، يجلب المعرة ، ويجعل الناس يتناولون الحكاية فى تزيد حتى العام المقبل · الى أن يأتى أمر هائل يغطى عليه ·· أوجعه الأمر ، وتصور مايقال عن رجل يحفظ الأمن ويخرقه فى آن ·

لحظتها جاءته القوة ، وأدرك أن الأمر لايحتمل التردد ، وأن الهجوم هو وسيلة الأمان ، وأن الجرى هربا ، ايذان بترجيح كفة الكلب · وأنه لابد من مطاردة الكلب حتى يطرده من الزقاق ·· وويله لو شاهده واحد من الناس يفر مذعورا أمام كلب صابحة ·· وهو خفير الحكومة ، المأجور لحماية النـــاس ولمواجهة الأمور الجليلة ! وان كان الكلب فى الحقيقة كلب السيد · نسى صابحة وأهمل وجهها الصبوح ، وضحكتها المشربة بخدر الصوت المذبوح ·· وتحسر على الدعوة لاحتســـاء الشاى الســـاخن ، وتدخين الشيشة » · المشهورة · وها هو الآن يقف أمام الباب الموارب ، ولا يقوى على الدخول ·· وكم تمنى أن يعرف سر تلك الرائحـة الطيبة المنبعثة من تلك الدار الصغيرة ، حاول ، ولكنه واجـــه الصد ، والزجر ··

لوى العنق ، وفرد الذراع ، وقبض على البندقية ··

وأخيرا حان الوقت ، وأقترب من الرائحة والأنفاس العطرة · ولكن الكلب يحول بينه وبين مقصده ! أتكون قد خدعته ! أتكون قد أوعزت الى الكلب أن يمنعه ! ·· أتسخر منى الفاجرة !! ·

ورفع ساقه ، وكاد يخطو · ·وظلت القدم عالقة فى الهواء ·

ويهب الكلب ، يقف على خلفيته حتى كاد يطول وجهه ·· يجب أن يصمد أمام الكلاب ، ولو كان كلب صابحة ! كيف يبدو فى عينيها اذا فر أمامه مذعورا : وهو الذى وعدها بليلة لن تنساها ما عاشت ·

كانت الخطوة ثباتا فى الفراغ ··

ومد الكلب يديه ، وأفرد مخالبه ، وشرع يتطاول تجـــاه الوجه ·· يكاد الوجه يلتقى بالوجه ، وتكاد اليدان تحطان على الكتفين ··

وتوشك الزمجرة أن تنقلب صرخة غاضبة ··

قبض الخفير على بندقيته ، امتدت فى الفــراغ ، فحجزت الكلب وكادت تصدم الوجه · وقف الكلاب متحفزا ، ووقف الخفير مستعدا ، فتح الكلب فمه وأبرز أنيابه ، وقدحت عيناه بالشرر ، وتكسر النباح الغاضب فى تكشيرة بغيضة ·· ووقف الخفير وقفة استعداد ، مسك البندقية من فوهتها فمحظور عليه استخدامها ، فأعيرتها النارية عهدة ، يحاسب عليها عند جردهـا ·· لامفر من استخدام البندقية كهراوة غليظة ··

لابد لوعيه وهو يواجهه أن يتركز حول الوجه ـ وفوق العين ، وأسفل الأذن · وكان على الكلب ألا تفوته حركة الرجل وحسبان المسافة ، وغلظ الهراوة ·· ولم يتزحزح أحدهما عن مكانه ·· ثمة فرصة لكليهما أن يتراجعا ، فالباب موارب ، يستطيع الكلب أن يلج منه وينهى المواجهة ·· لكن الضيف غير مسموح له ! فتلك السحنة لم يرها من قبل ، ولم يشم منها رائحة تعودها فيمن يراهم ·· انه دخيل ·· لن يدخل ·· لن يدخل ··

وتعلو زمجرة الكلب ، ثم يقوس ظهره ، ثم يفرده ، ويرفع رأسه فى حركة رتيبة ، نابحا ، وغاضبا ·

وهو لايزال يمسك ببندقيته ، يركز وعيه تماما ، ويحسب لكل مفاجأة حسابها · فليس سهلا أن يسقط الرجل من عين كلب صابحة ! ولو كان فى الأصل جرو السيد · وتطل صابحة ! فترتخى أذنا الكلب ، ويقفل الفم ، وتظل العين تنظر فى حدة ، ثم يلوى الرأس كله ويزوم ، ويتسحب وهو يرمى الرجل بنظرة عاتية ·· وتضحك صابحة فى نعومة ، وهى تفتح الباب الموارب ، وتقف على عتبته ، وتبتسم ، تسند جذعها عليه وتنتظر ··

ولكنه ـ وهو يراها ـ يلمح فى النظرة استخفافا ، فوضع البندقية على كتفه ومضى مبتعدا عن الزقاق ، وهو يحمد الله على السلامة ، ومن لحظتها لم يحاول أن يقترب من البيت ، والزقاق كله ، بالرغم من أن علاقته بالكلب تغيرت ·· ، وأضحى الكلب يصاحبه أحيانا فى نوبته الليلية، فى سكون يلائم صمت الليل ·· ·· ولكن الكلب ـ على غير العادة ـ لايزال يئن فى نباح متقطع ·· يبعث فى النفس خوفا يلازمها مع هزيع الليل الأخير ·

أخرج علبة التبغ ، وأعاد مرة أخرى برم سيجارة ، ثم أشعلها فى بطء · وأخذ نفسا عميقا ، ثم حدق فى الظلام وتمتم فى رجفة خفية (اللهم اجعله خيرا) ·

خيل له أن أصواتا تتسامى ، وتتوالى حول الأذن · فقطع هاجسا خائفا ، ومضى متثاقلا يدب بين الأزقة ، فلعل فى الدروب الضيقة ، ما ينسيه بأن الليلة تحمل أمرا ما ·

اصطادت أذنه ، وهو يتسحب بين الأزقة ، همسا زاعقا يتنامى من خلف باب قصير ضيق ، لبيت واطىء · اقترب وأرهف

السمع . وشى الهمس بفجيعة محتملة . أزداد التصاقا بالباب . لم يتعود أن يتلصص ، وهو يتسحب بين الأزقة . ولكن من يدرى ! ربما يحمل الهمس شيئا ، فلم ينس كيف اكتشف زميل له خطة لسرقة بهائم العمدة . كان معروفا عنه ، أنه يتمسح بكل شيء .. لكان الرجل أحيانا وهو يفتح بابه يفاجأ به جالسا أمام الباب ، مما أثار الخوف والريبة . حذره العمدة ، ولكنه لم يرتدع . كان الرجال يجتمعون فى بيت ناء قريب من الخلاء . والليل يكثر فيه حشرات الليل وهوامه ، كما يخفى فى ظلمته هواجس النفوس ورغائبها .. وحين تمسح كعادته بالباب فى حذر مدروس ، عرف مانوى عليه الرجال .. أسرع الى العمدة ، يخبره بالأمر . لم يصدق العمدة . أيصل الأمر الى حد سرقة بهائمه هو !! تلك كبيرة .. زجره ولكنه بيت فى نفسه أمرا . لبد فى حظيرة العمدة على مقربة من الجدار الخلفى . هو يعرف مكائدهم ووسيلتهم . انهم سينقبون الجدار ، ويفتحون فجوة يخرجون منها مايستطيعون من بهائم ، ثم يهربون بها ، ويدهنون أجسامهما بدهان مغاير ، ويذهبون بها الى سوق الثلاثاء بالبلدة المجاورة .

هكذا سمع ـ وهكذا لبد . حتى اذا جاء الوقت المحدد ، واجههم فى قوة ، واللص لص مهما أوتى من قوة ، فر من فر ، ووقع فى قبضته واحد منهم .

حين عرف العمدة ، وانتشر الخبر فى القرية ، ماعاد أحد ينقده فى تمسحه بالأبواب والبيوت ، بل كثيرا ما طالبوه ألا يكف عن عادته .. فقط لايسترق السمع كثيرا .. فالبيوت أسرار .. وعرف الرجل طريقه الى قلب العمدة .. وأضحى أحد الرجال المقربين اليه .. وأحد عيونه على السيد .

من يدرى لعله يقع على شىء يرفع من منزلته لدى العمدة ، ويقربه من الناس · وأرهف السمع · وتمسح بالباب · وجـــاءه صوت امرأة تتذلل ، بدت كأنما تتساقط أمامه ·· لم يعرف من تكون ؟ لكن الصوت الخائف الذليل ينفضه · كان الصوت الهامس يستعطف ، ويستدر الرحمة ·

ـ ارحمنى ··

خيل اليه أن تدافعا يحدث · فســـر الأمر على أنه خلاف بينها وبين زوجها ·· تحرك ماضيا ، فصك مسمعه رنة صـــوت مذعور ·

ـ انه أخوك ·· احفظ له غيبته ·

احتشدت أعصابه ، وعاد يلتصق متمسحا ·

ـ ان ما تريده عيب ، ارحمنى

استفزه الموقف ، وأدرك أن الأمر خطيـر ، وأن الليـــل ، والخلوة ، كحد الموسى وأن المقاومة لن تستمر طويلا · والصق أذنه ·

كان الصوت المركوب بحدة الرغبة يتكسر ·

ـ ولكنك لم ترحمينى

ـ ماقصرت يوما معك ·

ـ أنت تظهرين أمامى ·· دون خجل ·· تتكشفين أمامى ·· كأنى قالب طوب ··

وصله الصوت الخـــارج من قاع المـــرأة مرعوبا حقـا ، ومستغيثا ·

ـ لو أنجبت لكنت فى مقام أمك ٠٠

ـ ولكنك لست أمى ٠٠

ـ أرجوك ٠٠ احفظ غيبة أخيك الذى رباك ٠٠

وحل صمت مفاجىء ٠٠ خرست الألسنة ٠٠ ولكن ثمــة دبدبات متدافعة ٠٠

أحس بحزن يشمله ٠٠ وشعر بشرخ يقسمه ، وازداد التصاقا ثم خرقت أذنه نبحة مذبوحة ، مستبكية ٠

ـ ابعد عنى ٠٠ والا ٠٠

غشيه فرح مفاجىء ، أعاد التئام الشرخ ٠ وأدرك أن الأمر خطير ، وأن احتمالات الخطر واردة : وأنه وان كان الأمر ليس من اختصاصه ، الا أن الصباح قد يأتيه بقضية تشغله ، لأنها تقع فى زمام نوبته ٠ من يدرى كيف ينتهى الأمر ؟ ٠٠ ثم ان الولد عاق ، وقليل الحياء ، لابد من معرفته فى الصباح حتى يتأدب ٠ ولكن اينتظر الى الصباح !

ابتعد قليلا عن الباب ، وزعق عاليا ، وترامــى صــوته فى السكون متقاطرا ، ونهر الكلب النابح ، وظل ينهره ، وينهره ، لعل صوته يصل الى المرأة فتتماسك والى الولد قليل الحياء ، فيتراجع ٠ وصاح فى صوت ممطوط (الفجر على الأبواب) ثم ابتعد ، وهو يدق ببندقيته على الأرض ٠٠ وفجأة سمع صرير الباب ، فتوقف ولمح الولد يخرج متسحبا ، ومهرولا ، فحمد الله ، وشعر براحة تشمله ٠٠ وعاد الصمت يقبض عليه ٠ فصفق بيديه ، ودعا الله بالستر على عباده ٠٠ واقتلعه الأنين ثانية ٠ فمضى يتمتم بذكر الله ويستغفره ٠ وظل يؤنب نفسه على وقفته ، وتمسحه ٠ انه فقط أراد أن يطمئن نفسه والمرأة أيضا ٠ ولكن الهاجس الليلى المرعب

لايزال ينشب فى داخله ، ايمكن ان يكون وراء هذا النباح الراعب فجيعة قد يحملها شعاع الفجر ، و صياح الديكة · وبدا له أنين الترجيع كنداء نداهة ·· المصير ينبىء بشىء غير ســـار ، فكل المواقف المتشابهة تبدأ وتنتهى ـ فى الليل ـ بما لا يسر ، وتباشير الصباح فى مثل هذه الليالى لاتحمل الا الهم ··

ودوى صوت مخروق راعب ، مزق ستار الليـل وجـــرح أسيجته الصارمة ·· اقتلع الصوت الرجل ، ونفضه ، فطفـــق يتلفت مذعورا ·

كانت بدايات الفجر تحدد فى خفقة الضوء رجفة المعالم ·

وكانت تؤكد اهتزاز الأشياء فى عينيه ·· وارتعش السكون ، مع أن العتمة فى نزعها الأخير ما فتئت تتشبث بغلالة شفيفة من الظلمة ·· مضى يدب فى حركة منفعلة ، يمرق من زقاق الى زقاق ·· ثم استقر مرة أخرى بجوار الجامع ·

دوى الصوت ولم يتكرر ··

هو الصوت الذى يصاحب الفجيعة ، هو صـــوت النوبة ، وعلامة الأمر ··· وفى الفجر ، مع صعود الأذان من أعلى المئذنة ستخرج النسوة يصرخن فى نوبات عويل متتابعة كئيبة ·· فهن أداة الاعلام عن الموتى ·· ترى من هو ؟ ·· على من برك الموت وانتزع الروح !

بحث عن الكلب فلم يجده · أدى دوره ومضى · وران صمت ثقيل ، وحدث نفسه بأن الأمر جلل · مع أن الموت حق ·· سحب نفسه المتراخية وهو يردد :

على من برك الموت وأنتزع الروح :

* * *

- ٢ -

فزعت صابحة من نومها · فدوى الصوت قد وصـــل الى القلب ، كما لو كان هناك خيط سيال شفيف يصل اليها ، ويوصل لها الرسالة · لقد حركها ، وأرعبها ، ونفضها · هذا الصــوت الحامل للفجيعة الصارخ فى رعب تلفظه مسنونا حناجر النسوة ، يحدثها بأن أمرا جللا قد حدث ، وخرق العادة ·

ففى اللحظة التى بدأ فيها الصوت ينساب كالموجة الموحشة ، اخترقت حدة النبرة الزاعقة مكامن السمع ، وكأنما كانت تنام ، وأذنها منفصلة عنها ، فى يقظة واعية · لقد التوى القلب ـ واشتد وجيبه ، وظلت كفها لاتكــف عن الالتصـــاق بالقلب وتتحسس خفقاته ·

لملمت نفسها ، وطوحت بشالها الخفيف على الرأس والكتف ، وأرخت ثوبها الطويل ، ووقفت أمام الباب الصغير للغرفة القبلية · ظلت مشاعرها تتداخل وتختلط أمام اطار الخشب القديم ·

امتدت يدهـا فى رعشة راجفة الى الباب تسـحبه ، فكادت تعجز ، وكادت تنكفىء على نفسها ، كأنما الساقان بقايا عضلات مريضة ·· نهرت نفسها على الخوف المتضاعف فى نفسها ، فلا يعنى الصوت المدوى سوى الصوت المدوى ·· فكم سمعته ، وكم ارتعبت منه ·· بل وكم شاركت فى صنعه مع النسوة · فما لها لاتقوى هذه المرة على مواجهته !! انه الليلة يختلف ·· حقا انه يختلف · انه رعب زاحف الى القلب مباشرة ليقتله ·· وكأنما سلط عليها بالذات ، ليتركها كالحشفة الناشفة ·

فتحت الباب ، وعقلها غائب ، تائهة ، خائفة ، تفرش أصابعها الخمسة كأنما تتقى شيئا مكروها · وتقف فى حوش الدار مذهولة، تحدق فى السماء · ترهف السمع راجفة ·· فيطن الصوت ويتردد النعيب · قبضت السماء عينيها فظلتا محدقتين على اتساعهما ··

وصلها همهمة الكلب فتنبهت ، كان قد همد جسمه ، واستسلم لرقدته ، ومد رجليه فى تخاذل ، وأراح رأسه فوقهما ، وعينـاه نصف منطبقتين · نادت عليه فلم يتحرك ، أهملته ورفعت رأسـها الى أعلى · أدارت عينيها · ولوت من رقبتهـا ، وتلفتت تقيس مصدر الصوت المدوى وجهته ·

خبطت على صدرها فى وهلة مباغتة ، وهمست فى وجل ·

ـ قلبى يحدثنى ··

وخفق القلب بعنف ، طاعنا بدفقه ، الحشـا ، والصـدر ، والدماغ ··

ـ الصوت قادم من هناك ·

عصرت يديها ، ونز عرق لزج ، أزاحت الشال ، وفتحت صدر الثوب ، وحدقت ·

ـ أيكون هو !

وجمعت ذيل ثوبها فى قبضة يد باردة ورمحت على السلالم ، تنهبها ·· تنكفىء وتنهض ولا تبالى ، ببرودة الجسم أفقدتها حسا كان كالوتر · هذا الذى ينغل فى قلبها ارتجافا يســـتعصى على السكينة ولا تقوى عليه ·

ـ أيمضى فجأة دون بشارة ··

·· والفجر ينتزع الضوء وينسلخ من جلد الليل · والخيط الأبيض على مرمى الأفق يتشكل نقطا بيضاء باهتة · طافت فوق الأبيض قدمان غاطستان فى الظلمة · ثم بدتا فى غبشة النور ، تنسحبان الى الأفق وسط موجة من الضوء ·· كأنما الجسد كله غاطس فى النور ولايبين منه الا القدمان ·· ويهتز الكيان ، ويغوص القلب ·· وتنتفض ملتوية الحشا والصدر ·· هذا الوجه الأشهب المدور مبسوط على مساحة الرؤية ، يترقرق فى تشـــكيل ملامح تعرفها · تتســـمر فى المكان ، يطولها النور فتفتح صـــدرها لموجته ، ويختلج الجسم اختلاجة مرعوش بالخوف ·· ويتنامى الى سمعها رنين صوت حزين ، مكتوم ، ينسرب من الداخل ··

ـ أيكون هو !

لماذا الوجه الأشهب بالذات ؟ ·· عيناه وحاجباه وذقنـــه المدببة !

ـ أيعقـــل !

ما للفجر يتشكل وجها مدورا نيرا ، يترقرق فى العين !!

ماله يولد فى موجة حزن تشمل الكون كله !

أدارت رأسها فى السماء كالمأخوذة ·· الوجيب ، والدفق ، والحزن خفقات لشهقات مكتومة ·· أبصرت فى صعوبة طائـــرا يتخبط ·· ·· · ·استعصى عليها البكاء وهى تطلبه ··

افتقدت فى الموجة الفجرية أمانا كان يغطيها ، ويشملها ..

سحبت نفسها ونزلت .. والوجه الأشهب المدور يزاحمها ويغطى على عينيها .. بدا لها أنه يريد أن يخصها بشــىء .. بشىء تختص به كالمعجزة ..

انكفأت وتهدمت وهى تتمتم فى غياب مذهول ..

ـ أيكون هو ! ..

دمعة حارة تحدرت على خد بارد .. ولاتزال غير مصدقة ..

ـ أيعقـــل ..

.. أكان الذى جاء عبر اغفاءة الليل القصيرة ، هو بعينه دون غيره من الناس . لقد وقف عند حافة النوم ، على منحنى الأذن ، هذا الهمس الليلى .. الذى تعودته قبل أن تنام .. كان أداء الهمس جميلا ، وحنونا ، وأبويا .. تعودته قبل أن تغفو ، وتسترجعه قبل أن يأخذها النوم ـ بالرغم من أن زوجها بجانبها يحادثها أو يغط غطيطا عاليا .. والولد يلبد فى الحضن .

ولكنه جاء الليلة عاليا زاعقا .. يخرق الأذن خرقا ، ويرجف الجسم كله ـ وكأنما يتحدث بحديث النهاية ..

ـ أيكون هو !

ستضيق الدنيا ، وتعتم السماء ، وينقلب الميزان .. ويعود الناس ينظرون فى قحة ، ويرمون المحصنة ـ الآن ـ بماض محاه ، وينبشون حياة ، سواها من جديد ، فيها العفة ، وفيهـــا الروح المترقرقة ..

ـ اللهم اجعل نهايتنا قبل نهايته ..

وانسكب الدمع هتونا .. والوجه الأشـــهب عبر الموجـــة الفجرية لايزال يتراءى فى عينيها .. ويلوى القلب ليا ..

ـ ٣ ـ

جفاه النوم فاهتز ، وتقلب فى فراشه · كان الضوء خافتا لايبين ، ينبثق من شريط المصباح الزيتى واهنا مصـفرا · فرد ذراعيه ، وحرك ساقيه ، أحس بخدر يركب جسمه كله · كان الليل يزحف الى ضوء الفجر · وكانت زوجته بجواره غارقة فى نوم عميق · حرك منظر امرأته رغبة فيه ·· فاقترب ·· وندت الرغبة قبل أن تتحرك ·

حين سقطت عينه على وجهها تعجب ، وحين تفرس فى ملامح الوجه الغافى أخذته حمية مستفزة · وأفزعه ما رأى ·

كانت العبسة تشد الجبهة ، وتتكوم فى الوسط · شاهد الفم مفتوحا ومعووجا من جهة اليمين ، ولمح بدايات أسـنان تلوح صفراء فى غبش الضوء ، لم يلحظ حمرة الخد ـ ما تتيه به امرأته ـ ولا اكتناز الشفة ، التى كثيرا ماتعصرها تحت أسنانها لمزيد من الدم المعقود ·

ولكنه لم يفته وفى نظرة محدقة ، صدر زوجته ، ذلك الكنز ، وهو يترجرج ، يعلو ، ويهبط بفعل اضطراب مختزن ، والأنفاس لاهثة مرعوبة كأنما تخرج من قدر مكتوم بالبخار . لمح الساقين المبرومتين مفرودتين ، ومتباعدتين ، والثوب الخفيف الرهيف يسقط بينهما فيكاد لا يرى . صادت عيناه حركة يديها . وهى تدفع عنها شيئا عند الفخذ ، فداخله هم يلازمه كلما يراها نائمة ، فمن يدريه من تدفع عنها الليلة ؟

أراد أن يجنب نفسه هما غويطا ، فلمس جبهتها بأصابعه ، ما أن تلامس الجلدان حتى انتفضت فى رعب شديد . لم يفته لحظتها قدر الهول الموحش الذى يطل من عينيها وهى تديرهما فى كل اتجاه .

قبض عليها بذراعين وضع فيهما قلقه ومايدور داخله .

حين أحست بالألم ، تنبهت الى وجوده وتنحت فى رجفة ، وتمتمت .

ـ اللهم اجعله خيرا .

أزاحت القميص الليلى ، وكشفت عن وركها كله ، هذا الذى يغرق زوجها ويبهجه . داعبه أمل مدبب فاقترب منها حتى لاصقها . ولكنها نهرته ثم دفعته دون اهتمام ، وانكبت بوجهها على الورك تتفحصه ، فلم تتبين شيئا . طلبت منه أن يزيد من نور المصباح . وغمر المصباح بنوره الغرفة ، وحينما استدار ، كانت قد عرت جسدها كله . لم يذكر يوما انها فعلت ذلك أمامه . كان يطلب ، وكانت تتأبى . وهاهو الجسد المبروم يلامس الضوء فيشع جمالا يثير الحس .

داخله لمرة الثانية أمل مدبب ، فبدأ يخلع ملابسه .

وجاءته نظرتها المتوحشة فأخرست حركته ، فأعاد ملابسه · وزمها على جسده ·

انحنت بكامل جذعها ، حتى كادت الرأس تختفى بين الساقين · اقترب منها وذهول يحتويه ، وساوس تشى بخوفه وقلقه · فعلى طول ماعاشرها لم يرها فى موقف كهذا الموقف ·

ظلت عيناها تدوران حتى توقفت عند أعلى الورك بامتداد أسفل البطن ، وظهر على ملامحها رعب هائل وصـــرخت دون أن تقيم وجهها ·

ـ انظـر ·

بسطت كفها على الورك فى رعشة منتفضة · تملكته دهشـة طاغية · نتر الغطاء ، ورمى المخدة ، نزع الملاءة ودار حول السرير دفس رأسه فىالزوايا ، وتحت السرير ، تفحص الأركان والقوائم وبعض الحفر ·· رنا الى السقف وظل يدور بعينيه ، لعلـه يهتدى الى شىء · وأرتدت عيناه خائبتين · أتاها فوجدها لا تزال تحدق فى رعب ، لاحقها فرأى العلامة على الورك ، رآهـــا كالكدمـــة المدممة · زرقاء فى الحواف ، معتمة من الوسط وثمة نقطة بيضاء بلون اللحم تتوسطها ·

ـ كدمـــة !

رددت فى خفوت وبوعى غائب ·

ـ ربما ·· قد تكون ··

اثاره غيابها وذهولها فقال

ـ انها كالقرصة ··

تمعن فى التفرس فى الوجه والورك ··

ـ كأنها جاءت بفعل غل واضح ··

واقترب ولمس الكدمة ، فأحس بسخونتها ، كأنما وجدت فى التو ·

ـ كما لو تكون قد حدثت الآن ·

ـ هى كما ترى

نقل عينه بين الكدمة ووجه امرأته ، وحيـــرة تترقرق على وجهه ، وضيق قبض على نفسه من كثرة ما تحلم ، وكثرة ما تدفع بيديها ·

ـ عائشـــة !

نظرت اليه فى صمت ، فلعل ماعلا الســـحنة من جد يوحى بشىء ·

ـ ألم تكن موجودة من قبل !

طوحت بيديها مستاءة

ـ كيف كنت تأتينى اذن !

ـ الأمر غريب ·

وتمنى لو يمتد معها الحديث · فهو لايذكر متى امتد الحديث بينهما وطال · كان الكلام كالقطيعة · وتسأل الآن كيف تأتينى ! كان الاتيان كما السرقة والاختلاس ·

لف حولها ودار ، طرح عينه على الجســـد ، تبحث فى كل جزء ، وكل ثنية ، وفوق كل مساحة ، وعبر كل اكتناز ، وتحت كل دقيق ·· وتقف عيناه فوق الكدمة ، أعلى الورك ، بامتداد أســفل البطن قرب الالتقاء ·· وحزن ·· حزن في الحقيقة ، وقال فى هم محتد ·

ـ ولكن لم هذا الموضع بالذات ٠

ورمت على جسدها بغلالة شفيفة ٠

أصابها ، نزق متأفف وهى تراه قلقا ، محتدا ، حزينا ٠

وكان شريط الحلم يتبدى أمامها فتزداد تأففا ٠

ناولها كوز الماء ، فشربت ، وبللت مكان الكدمة ٠٠

وعاد الى غمه الذى بداخله وقال

ـ أحدثت فى الحلم !

لم تلق بالا اليه ، وظل ذهنها مشغولا ، وملامحها متكدرة ٠

ـ لم تجيبى

ردت فى غياب ذهنى ، وعقلها لايزال مشدودا الى البعيد ٠٠

ـ عن أى شىء ٠٠

ضاق صدره وقال :

ـ أحدثت فى الحلم ٠ ؟

ـ كما تـرى ٠

أفزعه الرد ، فزفر فى ضيق ٠ وأدركه ارتياب ، فما سمع أن مايتراءى فى الحلم يتحقق ٠ من يقول بذلك ! لو حـــدث ذلك ، لانهدت الدنيا ، وجن الناس ٠ وعلى فرض خيالى غريب ، فلـــم تقع فى هذا الموضع بالذات ؟ ٠٠ لم لم تحدث فى الذراع أو الساق أو حتى الوجه ! الأمر لايوحى بخيـر ٠٠ وكيـــف يوحى بخير ، ويداها تظلان تدفعان عن نفسها ، كلما غفت ، وكأنما تتقى بها من يود ، ويتسلل ٠٠ لعلنى فى الصباح أشاور السيد ٠

نطق فى حدة كالصراخ ··

ـ ولماذا هذا الموضع بالذات ··

مسك وجهها ، وحدق فى ذهول

ـ لابد أنه كان يود أن ···

اشاحت بوجهها ، وثمة اضاءة متألقة تشع فى العين ··

ـ يقولون ان حلم آخر الليل يتحقق ·

حشر المخدة تحت ظهرها فى قسوة ، أسـندها الى حائط السرير وزم ساقيها ·

ـ كان يتسلل فى الحلم ، وتودين أن يتحقق ·

نظرت اليه فى تكسر ، وقالت فى همس ·

ـ انما هو حلم ··

قال مغيظا : ـ أعلم أنه حلم ·· ولكنك كنت نائمة ، فى توتر، وفمك معووج يرتعش ، ويداك تدفعان ·· وتدفعان ··

أم أنك لا تتذكرين !

رفعت ذيل القميص تستروح به ، ومـالت على جانبهـا ، وربتت على البنت الصغيرة ، وأطلت على وجهها الأشهب الجميل ، وراحت فى تهويمة غافية ·· وتمنت لو ينبلج الصبح ويسفر حتى تراه وتشاوره ·

ومالت الى ابنتها ترضعها ، والوجه يزاحمها ولا يغيب عنها ، وهو يغوص ·· يغوص الى القاع ·

ودوى صوت مخروق راعب وقاس ·

هب زوجها ففتح النافذة · واحاطت ابنتها فى قوة كانمـا تدفع عنها وهما مخيفا · هزها الحنين والحلم ، والأمل ، والماضى والخوف ، والموت ، فأحكمت ذراعيها حول البنت · والقلب ينبض فى هدير ، والعقل غائب فى الرؤى المبهمة ، وصورة الوجه لاتزال عالقة بالذهن · والبنت تلقم الثدى وتهمهم فى رضى ·

أغلق النافذة وقال فى ترقب راجف ·

ـ اللهم اجعله خيرا ·

تمتمت بلا وعى ، وخرج الصوت مندى برنة خوف وعتاب ·

ـ دفعته فى قوة ثم غاص فى البحيرة ··

نظر مندهشا ـ وقلبه ينتفض فى رجفة ··

ـ من ؟

ـ لاتشغل بالك انه حلـم ··

ـ ألا تكفين عن أحلامك ·· لقد زاد الأمر عن حده ··

أدار لها ظهره وحاول النوم

ـ قلبى يحدثنى أن أمرا سيحدث

ـ نامى واهجعى ·· فكم حدثك قلبك بما لايحدث ·

ـ الهاجس الليلة قوى ·

أقام ظهره واتكأ وقال فى تثاؤب ملول

ـ أى هاجس ! ـ ألا تكفين

لم تجب · فران الصمت ، وظل صـدى الصـــوت الراعب يتردد ·· ضاغطا على الصدر والقلب ·· فأدار لها ظهره وعقله يستعصى عليه ·

* * *

ـ ٤ ـ

عرف الخبر . مات السيد ولما يسفر الصبح . مات ولما تتحدد الأنفاس بعد . فلا يزال مع حركة النفس شعور لابد بأن ماحدث لايصدق ، وأن الأمر لا يتم بهذه البساطة ، وأن ثمة خللا طرأ يوحى به الصوت فجأة . والا فكيف يصدق العقل أن السيد مفارق .. وأنه مودع ، وأن العين لن تكتحل بمرآه ، والقلب لن يتطهر بنار وجده !!

كيف يحدث الأمر هكذا بغتة دون أية اشارة تخفف الوقع على النفوس المحبة ! والقلوب الضعيفة وجدا ! كيف للعين أن تتعود رؤية الجبل مهدما وكان شامخا راسيا ! والصوت مقبورا وكان مدويا يصك المسامع ! بل من لأذن بعد اليوم تقوى على النوم بعدما فقد الذكر تراتيل النفس وخفقات القلب .

« من لقلوب الجياع من مداو بعدك ياسيد »

صك مسمعه تلك العبارة الأخيرة · من لقلوب الجياع بعدك يا سيد · فتعجب أن يصدر مثل هذا الكلام من خادمه الطيب الوقور ، ولما يزل سيده على قيد الحياة ·· انه هذه الأيام ـ يلتوى لسانه بكلام مبهم غامض ·· فما باله قد اختلط عليه الأمر ، ولم يعد يفرق بين شخص وآخر ، وسيد وسيد !

حين أبصره يحمل الابريق ، وقطعة الصابون ، أدرك أن الصباح قد فارق ليله ، وأن يوما جديدا ، يحمل عملا جديدا ، وهما جديدا قد بدأ يسفر ·· ولكن لفظة « السيد » لاتزال عالقة بالذهن · صاحية لاتغيب · ترى من هذا الذى لهج به لسان الخادم فى صباح باكر كهذا !

قعد القرفصاء ، وشمر عن ذراعين مكتنزتين ، بيضاوين خاليتين من الشعر الا قليلا · كان « الطشت » أمامه غارقا ومدعوكا بالتراب · فقد ولغه الكلب ، وهو بينه وبين الكلاب عداوة عريقة منذ أن كان طفلا يلاعبهم ويلاعبونه ، ومنذ أن عضته كلبة فرق بينها وبين كلب فى لحظة استمتاع مفضوحة · غاظه المنظر وهو طفل · فجرى يبحث عن العصا وانهال عليها · حين سحبت الكلبة كلبها ، لم يرحمها وظلت العصا تنحط على الجسد فى لسعات كاوية ·· استدارت الكلبة بعد أن انفلتت ، وعضته فى زمجرة · أخذه أبوه وعالجه ، ولكنه من تلك اللحظة ، ترسبت العداوة فى نفسه من الكلاب ·· بالرغم من كثرة (الكلاب) التى تؤم بيته وتركن الى مافيه ، وتحتمى به ·

الحيطة واجبة · على الأقل أمام أهل البيت والعمال · بل ان الحاجة على التمسك بالأمور الدينية ـ كغسل الاناء سبع مرات اذا ولغ فيه الكلب ، يجعله فى نظر الناس ملتزما بالقيم

فخادمته ذات اللسان المثرثر ستظل تمتدح ما أمر به من غسل الاناء بالتراب · كما تمتدح سخاءه على الفقراء فى المواســم والأعياد ·

فهو وان كان له امتداد من السلطة كشيخ للخفر ، لاينسى أبدا أن يبدو أمام العيون ملتزما بأوامر الشرع ونواهيه ·· بالرغـم من أن خادمه يقلقه بهاجسه المتسائل · كيف يوفق سيده بين حرصه هذا ·· وجلساته السرية المتخفية فى بيت صابحة !!

ولما بدأت المياه تنساب فى خيوط راجفة ، تمتـــم فى صوت خفيض مبتهل ، يرشح بصدق ظاهر ، ورضى خــارجى كعادته كل يوم ··

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم · اللهم طهر نفوسنا وأبداننا من كل خبث رجيم ·

أردف وعينه على خيوط الماء

ـ أجهزتم الفطور ؟

ـ الست الهانم تعده من ساعة ·

عاود الدعاء ، فى همهمة ·

ـ اللهم أنر وجهى بنورك ، وضوىء نفسى برضاك ·

نفض ما علق على أصابعه من ماء ، ورمق خادمه ·

ـ خيل الى أننى سمعت أصواتا مختلطة ·· أحدث شىء ؟

رد الخادم بصوت حزين مقذوف

ـ حدثت فاجعة ·

ـ لا تكثر من الماء ·· اللهم اكتب كتابى بيمينى ولا تكتبه من وراء ظهرى يارب العالمين ··

ورفع رأسه الى خادمه ، كانت عينا الخـــادم غائرتين ـ وكانت ملامحه ممتعضة ، بدا له ، كما لو كان مستفزا مما يسمع (هذا الخادم يريبنى ، ويضايقنى ، ولكننى لا أستطيع أن استغنى عنه ـ انه عشرة عمر ··)

تمتم مندهشا ، مما يلون صوت خادمه من حزن ·· فالفواجع كثيرة ·· وفى طلعة كل فجر ، يواجه دائما بأمر ما يقلق راحته ··

ـ أتقول فاجعة !

وصمت ولم يطلب المزيد ·

ظلت المياه تنسكب فى خيوط رفيعة ، فلقد حرص الخادم على انزال الماء فى سرسوب رقيق ··

نطق غير مبال ·· كما لو كان يحدث نفسه ،

ـ لابد أن قتيلا سقط ·· لايخلو يوم من حادث ·

وصوب الى خادمه عينين هامدتين نافرتين ·

ـ من القتيـــل ! ·

أراح الخادم ذراعيه ، وعدل من جلسته وقال :

ـ ليس ثمة قتيل ··

تفرس فى وجهه مندهشا

ـ ولكنك قلت فاجعة

ـ نعم ··

ـ صب الماء

وعاد يدعو فى صوت عال ضجر « اللهم حرم شعرى وجسدى على النار » ٠

وامتدت أصابعه تمسح شعره ، وتتخلل فيه ، وتدعك خصلاته

ـ اللهم خضله بالريحان فى الجنة ٠٠

ردد الخادم فى نبرة سريعة مغموسة برجاء حقيقى

ـ آمين ٠

بهت فجاة من رده السريع ٠٠ وخالطه شعور مبهم ازاء خادمه ، فهو فى أيامه الأخيرة لايشعر بطمأنينة ، وأحواله غريبة ٠٠ انه يصدق على الدعاء ، كما لو كان يتمناه فى الحقيقة ٠٠ وداخله شعور مبهم بأن الخادم يتمنى له الموت ٠٠ أو يتمنى له الصلاح ٠٠ وهو فى الحالين عجيب ، انه يكشفه بطريقته ٠٠ ولكنه قطعة من عمرى فلأتحمله ٠

ـ أيكون أحد من أولاد الهرمة اقتلع زرعا أو سم بهائم

ـ الأمر أكبر من ذلك ٠٠

أقعى على رجله اليسرى ، ومد قدمه اليمنى ، وظلت يداه تحوطان القدم ـ وتندس أصابعه بين أصابع القدم ، وتمسح ما بين الأصابع ٠٠ وبين مسحة وأخرى يرمق خادمه ، فلا يفوته تأفف ضجر يعلو وجهه ٠٠

ـ تلك سنة ، وعند الامام مالك من كمال الوضوء ٠ أعاد قدمه اليمنى الى السجادة ، فى حين بدأت أصابعه ويداه تمشيان على القدم اليسرى ٠

ـ اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم ··

نتر أصابعه ، فأصاب الرذاذ وجه الخادم · ظل الخادم ساكنا يصوب عينيه تجاه الرجل ··

ـ حيرتنى ·· ما الأمر اذن !!

نطقها الخادم فى سرعة خاطفة ، كأنما لايقوى على احتمال كتمانها ·

ـ مـات السـيد ··

ـ أى سـيد ! ·

ـ وهل فى البلد سيد غيره ·

رصد عقله المعنى فجأة ، فراح تفكيره فى سفرة بعيدة · ظل وجهه مصوبا الى الخادم فى تدويرة لم تكتمل ، وعيناه ذاهلتان ، راقدتان على وجه الخادم ، والماء لايزال ينسكب فى رهافة خيط لايقوى على التواصل ، على حين ظلت الأصابع ساكنة فوق القدم لاتتحرك ، فلاح القدم معلقا فى فراغ ·· مما جعل الحركة الساكنة تكـاد توقع بالمرجل ··

فاستند على كفه اليمنى وأبعد باشارة منه خادمه ·

ركن الخادم الابريق ، وانحنى يحمل الطشت ·

ـ كيف علمت بالخبر ؟

ـ بعد صلاة الفجر ·

وقف ناهضا ، متصالبا ، ودعا الله بالرحمة والمغفرة ودخل فى الصلاة · حين انتهى من الصلاة ، دخل عليه الخادم بالفطور ·

ـ أكان مريضا ٠ ؟ فأنا فى الأيام الأخيرة لم أره ٠

ـ كان كأحسن مايكون صحة ٠

ـ عجيب ، ليرحمه الله ٠٠

ـ آمين ٠٠

ظل يداوم النظر الى الطعام ، ولم تمتد اليه يده ٠ طلب من خادمه أن يحمله ويأتى بالشاى ٠

ـ أنت لم تفطر ، وقد يحتاج الأمر الى جهد مضاعف ٠

ـ أترى ذلك ؟

ـ مؤكد ، فالميت السيد ، والمعزون من البلاد المجـــاورة سيفدون بمجرد أن يصلهم الخبر ٠

امتدت يده ، وقطعت لقمة ، وغمسها فى البيض العائم فى الزبد ٠ وبلعها بالكاد ٠٠

ـ ليس فى النفس رغبة الى أكل ٠٠

نظر الى الخادم كأنما يستكشف داخله ٠٠ فهو يعلم أنه واحد من جماعته ، الحريصين على ملازمته الســـيد ٠٠ فى جلســـاته وأذكاره ٠٠ التى يأتى اليها الكثير من رجال البـــلاد المجـاورة والنائية ٠٠ أخلاط عجيبة ، من النساء والرجـــال ، والشـــيوخ والصغار ، والاغنياء والفقراء ، وحتى لصوص الليل وبائعـــات الهوى ٠٠ ستكتظ البلد بهم ٠٠ وسيكون على رأس المستقبلين ، ٠٠ ما أتعسه من يوم ٠٠

نطق الخادم وأذنه تصطاد الهمهمة ٠٠

ـ الوفاة مهيبة ، والميت السيد ، واليوم لن ينسى ٠

ـ اليوم سيكون متعبا وشاقا

وحدث نفسه فى همهمة داخلية (أتعبنا فى حياته ، وسيتعبنا فى مماته) ٠

نظر الى الخادم ولم ينطق ، ظل ينظر اليه دون أن ينطق ، كأنما تصلبت عيناه ، وجمدتا ٠

انسحب الخادم بالطعام ـ ولما يزل صامتا محدقا فى الفراغ ٠



الفصـــل الثـانى



- ١ -

في الصباح الباكر كانت قد خرجت صابحة لتوها في اتجـاه البيت العامر ـ كما تسميه · أغلقت بابها ، بعد أن اطمأنت على أمها العجوز · الجو الندى يرطب المشاعر ، ويحمل النفس على المجاهدة · وعصافير الحارة ترتل في أصوات متمازجة ، ترتيلة الصباح الندية · وشعاعات الشمس حمراء مصفرة تؤذن ببدء عمل يومى في أكثر من بيت ··

تعودت صابحة في صباح كل يوم أن تبدأ مشوارها بالمرور على بيت الحاجة سنية ·· لتقضى طلباتها وتقوم باللازم الذى تريده الحاجة ، أو زوجها ·· وهى لاترى في ذلك مساسا بها ، أو جرحا لمشاعرها ·· هى فقيرة ·· نعم ، ليس لها عائل ، نعـم أيضا · ولكن البيوت التى تدخلها ، تحس فيها كأنها في بيتها ـ لم تهن يوما ، أو تأكل بقايا طعام ·· ولكنها تلبس مما تستغنى عنه النساء ·· هى ·· وأمها ··

هذا الصباح شغله كثير · فالحاجة مريضة ، شفاها الله ، لاتقوى على العمل ، ولاتحب أن يساعدها أحد سواى ·· اليوم عجين وخبيز ، سيمضى اليوم كله عندهم ·· وعند حنية الزقاق ، وهى تتجه كالسهم لتميل يمينا شطر البيت لمحته عند مفترق الزقاق فى مواجهة الحارة القبلية ··

كان جالسا القرفصاء ، حاسر الرأس ، مفتوح الصدر على اللحم ·· توقفت ·· ونظرت اليه ·· كانت يداه تحفران فى كومة من التراب ، شغلها ما رأت ·· فمالت بجذعها واستندت الى حافة جدار ناتىء ··

ما باله اليوم مهموما عكرا لا يلتفت الى أحد ! ـ حضر مبكرا على غير العادة ولم يمر على البيوت يقرأ الفاتحة ·· كثيرا ما أوصتها الحاجة أن تعطيه الطعام والشراب · ولكنه كان يرفض أن يأخذ شيئا ·· يمر على الأبواب يدقها وحين تفتح ، يمد ذراعيه ويبسط كفيه ثم يقرأ الفاتحة ·· ويمضى · ·تصوره الناس عجيبة فاندهشوا فى أول الأمر ثم بدا الأمر عاديا ·· ولكنه ـ حين يتأخر قليلا ـ يجد أمامه الأطفال يحيطونه ويلفون معه ، ويضحكون عليه أحيانا ، ويزفونه فى لحظات نادرة ، يرمونه فيها بصفات الأهبل العبيط ·· وما مد يوما ذراعه الى طفل ينهره · كان يحس بسعادة تغمره وهو وسط الأطفال ·· حتى أصبح لهم عادة يومية يحزنون لو لم يقوموا بها ··

من هو ، ؟ من أين جاء ؟ وكيف ؟ ـ لا أحد يعلم شيئا ··

ظل منكبا على كومة التراب ، يحفر ، حتى بدا الشق غويطا بطول ذراع · أرسل يده الى العمق وسوى جوانب الشق · ثم تفرس فيه وتنهد ·· ورفع رأسه وصوبه فى اتجاه الحارة القبلية

.. أصـــابتها قشـــعريرة وهى ترى العينين هامدتين والذراعين مسندتين على الركبتين فى ارتخاء .

اعتدل فى جلسته ومد يده الى قالب من الطوب ، وبدأ يمسح عليه . مرت أصابعه على مقدمته ، ومسح عليها ، وما برحــت أصابعه تمشى على كل جزء فيه حتى اكتمل المسح .. ثم ربت عليه فى حنو .. ودسه فى الشق ..

لاحظت على وجهه غيمة حزن .. وتمتمات مبهمة فداخلها رجفة ملكت جسدها ، فاستعاذت بالله ، وحدست أن اليوم يحمل فى طياته أمرا مقبضا .

أهال التراب على قالب الطوب ، ثم سواه ، وفرشه بيده . ورش عليه بعض الماء من كوز صفيح صدىء .. فأرعبها مارأت . هذا الفأل الســيىء فى البكور لن يمر على خير . ولم تقو على رؤية الرجل وهو يؤدى هذا الفعل بطقوس معروفة تقبض النفس وتجلب الخوف ..

مضت اليه ووقفت على رأسه منتصبة ..

ـ يافتاح ياعليم .. ماذا تفعل !

لم يرفع رأسا ، ولم ينطق بكلمة

ـ رأيتك من البداية .. قل أهى لعبة تسلى بها نفسك ؟

أمال رأسه اليها ولم ينطق

ـ تركت قراءة الفاتحة .. وجلســت تنكش فى التــراب كالعيال

ذرفت عيناه دمعة تحدرت على الخد فانقبضت .

ـ مالك ·· أنت اليوم غريب فى أحوالك ··

امتدت يده الى الكوز وملأ كفه ورش التراب وبسمل ··

ـ قل لى ، ولا تعطلنى عن عملى ·· أجائع أنت ؟

ـ لا

أخيرا نطق ، ولكن كلماته تنهيدة مقطوعة ·

ـ أتحس بمرض يتعبك ؟

ـ لا ·

ـ هل ضايقك أحد فى الصباح ؟

نظر اليها وفى عينيه رقرقة ، فرق قلبها ، هى تعرف معنى أن تمتلىء العين بدموع محبوسة · كم مرت بها ، وكم شقيت ! ·· ليس سهلا على المرأة أيا كانت · أن تظل تعمل ، والفقر يكتنفها · والأم العجوز تنتظرها ، والرجال بعيدون ، والعمر يمضـــى ·· ولحظات القرب من الهاجس الأنثوى يشقى ويدمى ·· حتى لتبدو الأيام فى نظرها كالحة ، والعيون جـــامدة ، والقلوب خلت من الرحمة ، والرجال لاينظرون الى الفقيرة : ولا يبغونها زوجة ··

رق قلبها ، فجلست أمامه ملهوفة ··

ـ مالك ·· اننا نستبشر بك فى الصباح ·· فما بالك اليوم حزين ·· قل ياسيد ·· ماذا بك ··

تنهد فى عمق ومسحت عيناه وجهها ··

ـ انما هو الفراق ياصابحة· ·

خبطت على صدرها فى صدق باد فاطمأن لنبلها ومشاعرها ·

ـ فراق من !! كفانا الله الشر ·

ـ فراق حبيب ، كنت اجلس معه بعد طوافى اشرب الشاى واقتات بعضا من طعامه الطاهر ٠

ـ قل من ٠! أخفتنى ! ٠

ـ لاتتعجلى ٠٠ الأمر قريب ، والنداء لم يصل بعد ٠٠

ـ أى نداء ياسيد أخرفت ٠٠ كما يقول العيال

نظر اليها فى اطمئنان حقيقي ـ انها الوحيدة التى رأته ووقفت تحادثه ٠٠

ـ سامحك الله ٠٠ اللهم سامحها ٠٠ وثبتها وطهرها ٠٠

ودون أن يدرى مسك بكفها ، وفرد أصابعها ٠٠ لم تشـــعر لحظة أنه يريد سوءا ولكن أصابعه وهى تمشى على راحة الكف ، أشعرتها بتنميل موجع ٠٠

لا تنسى نفسك ٠ اصمدى ، حماك الله ، وخفف عنك ٠٠ سحبت يدها ، راجفة ، ونهضـت تاركة اياه ومشـــاعر مختلطة تشملها ٠

طرقت صابحة الباب ٠ وضعت يدها على حلقة الحديد ودقت دقات متوالية ٠٠ وورب الباب فطالعها وجه الحاجة ٠ حيتها وهى تدلف مسرعة وصوتها يعلو معتذرا ٠٠

ـ تأخرت عليكم ٠٠

وكأنها تعرف طريقها جيدا ٠ مرقت الى الداخل ٠ فى الحجرة الجنوبية ، كبت وعاء الدقيق فى اناء مسطح وحملته وذهبت به الى الزير ، رمت بكوز من الماء فوقه وعادت ٠ ضربت بيدهـــا الدقيق ، لفته ، ودورته ، ثم أحضرت اللبن وأفرغته فوقه ، وبدأت

فى عجن الدقيق ، حتى شرب اللبن وامتصه · بجانب يدها اخذت بعضا من السمن ، وداومت المعجن ·· حين اطمأنت اليه ألقت عليه قماشة بيضاء وتركته حتى يتخمر قليلا ··

اتجهت الى الفرن فى براح الدار ، وألقت فيه بحـــزمة من حطب الذرة · ارتفعت النيران ، وعلا الدخان ··

كانت الحاجة تجلس على المصطبة ساكنة هادئة وادعة ·

ـ سأجهز الفطور حالا ··

تحدثت الحاجة فى صوت واهن

ـ على مهلك ، فلازلنا فى أول النهار ··

ـ حتى يحمى الفرن سأكنس الدار ··

مسكت المكنسة ذات الخيوط الليفية الدقيقة وبدأت تكنس ·· شمرت ثوبها ، وراحت تدور فى الصحن · لفت الحصيرة وشالتها ، خبطتها بالمكنسة ، فتطاير التراب والغبار ، ثم ركنتها بجانب الجدار وعادت الى الكنس ·· جمعت ما كنسته ثم ألقت به فى حظيرة الماشية · ألقت بالمكنسة ثم بدأت ترش الصحن بالماء · طال الغبار الحاجة فكحت ·· وسعلت طويلا ·

ـ لم لم يأخذك الحاج الى الطبيب !

ـ لم يقصر يا صابحة ·· انما هو المرض الذى تربص بى ولم يخرج ·

ـ الحاج موجود !

ـ خرج وسيعود ان شاء الله ·

ـ وصـــابر ؟

ـ فوق .. يستذكر .. ادعى له ياصابحة

ـ ربنا ينجحه ، وأشوفه دكتور يملا الدنيا كلها

تمتمت الحاجة : آمين ..

هزها الدعاء الصادر من صابحة ، أحست فيه صدقا وحبا وحنانا

ـ خرجت به من الدنيا ..

ـ ربنا يكرمك به .. وينيلك أملك فيه .. وتحملين أولاده .. اغرورقت عينا الحاجة ، وأمدتت يدها الى الشال الأبيض ومسحت وجهها ..

ـ اخشى عليه بعدى ..

ـ العمر لك ياحاجة ـ أصبحنا وأصبح الملك لله .

أخذت وعاء العجين ، وقطعته قطعا ، ووضعتها على الطبلية ، فردت كل قطعة وبدأت الأصابع فى دعكها جيدا ، ثم رمت بها فى الفرن .. ألقت ببعض عيدان الحطب ونهضت الى الداخل ..

جمعت بعض حبات البيض الطازجة من مرقد الدجاج ، ووضعتهم فى حجرها . أخرجت طبقا ، ووضعت فيه السمن واتجهت الى الفرن ثانية ، حين ساحت السمن وطشت ، فقشت البيض وأدخلت الطبق الفرن .. ثم أحضرت صينية من النحاس ووضعتها أمام الحاجة . عادت وأخرجت الطبق بالبيض وأرغفة الرقاق . وأتت بالطبلية : وجلست تحت أقدام الحاجة ..

ـ الولد لم يفطر .. خذى له فطاره

أخذت له نصيبه وصعدت .. ثم عادت ..

ـ لم تأكلى ياحاجة

ـ النفس مصدودة

أدارت عينيها بين الطعام وصابحة وقالت :

ـ كلى أنت

ـ ليس الآن ··

اتجهت ناحية « طلمبة » المياه ، بهمة فائقة وملأت « الحلة » وافرغتها فى الزير ··

ـ أين الغسيل يا حاجة ؟

ـ افطرى أولا ··

ـ ليس قبل نقع الغسيل ·

ـ الملابس فى الداخل ·· اجمعيها وتعالى ·

مرقت الى الداخل ، جمعت الملابس ·· الخاصة بالحاج والحاجة وصابر ·· الأبيض فى جهة والألوان فى جهة أخرى ·· غمرت الملابس فى الطشت الكبير ورشت عليه المسحوق ، ودعكته ، ثم عادت الى الحاجة · جلست وهى تمسح وجهها وتسترد أنفاسها اللاهثة ··

ـ أظنك الآن جائعة ياصابحة ··

ـ بشرط أن تأكلى معى ياحاجة

ـ حاضر ·· لا أعرف ماذا يحدث لى من غيرك ·

ـ خدامتك ياحاجة ·

رمشت عيونها واخضلت بالدمع ، واهتز داخلها بمودة حقيقية ، واطمأنت الى أن البنت خير بنات الحارة ، وأن معدنها طيب

لولا أن الحظ يعاكسها ، والعمر يمتد بها ·· هى الوحيدة التى تطمئن الى دخولها وعملها حتى أصبحت فردا من العائلة ·· وكم حدثها الحاج عنها ، وكم طلب منها أن ترأف بها وتعطف عليها فالبنت مقطوعة من شجرة ، لا أحد يظلها ، ولاجدار يسندها ··

تملت الحاجة فى وجهها ، وحملت العين دفئا حقيقيا ··

ـ أنت واحدة منا ياصابحة ··

أحنت رأسها ··· وعلتها حمرة مشربة بخجل يطفر فى سخونة صاهدة وتمتمت ··

ـ ربنا يخرجك من شدتك ياحاجة ·

بعد أن تناولتا الطعام ·· دخلت الحاجة الى غرفتها لتستريح ·· ومضت صابحة تعد الشاى لصابر ··

وبهمة بالغة أنهت الغسيل وصعدت به الى السطوح تنشره ·

* * *

ـ ٢ ـ

فى غبشة الليل الأولى ، ولما يستقر بعد الرجال فى دورهم بعد يوم شاق فى حقولهم ، علا صوت فاجع مولول ٠٠ طاف الصوت متقطعا وحط على الآذان ، وانسرب الى الداخل ٠ الصوت مميز عن كل الأصوات ، له حدته ، وتطاوله ، وامتداده ونبرته الحزينة ٠ انه طائر الموت رفرف على الزقاق ثم حط ٠٠

أنفتحت الأبواب وأطلت الوجوه تستطلع الخبر ٠

الدور متلاصقة واطئة ، والزقاق ينحدر الى أسفل حتى لتبدو البيوت فى آخر الزقاق مطموسة المعالم ، غاطسة فى مجال الرؤية لاتبين ٠٠

حين عاد الصوت تحدد المكان ٠٠ انه خارج من أسفل ٠٠

تواجهت الوجوه مستفسرة ٠٠ وأسند الصغار اجسادهم الى الحائط ثم تحركوا فى اتجاه الصوت ٠٠

ـ أيكون عبد العليم ٠ !

ـ انه مريض منذ فترة ٠٠

لاحت امرأة تجرى لاهثة وهى تلطم وجهها ، وتطوح بشالها الأسود ٠

ـ مات عبد العليم ٠٠

تطوحت الأجساد ٠ وتهدلت الأذرع وبدأ الدبيب تجاه الميت ٠

زمت الحاجة وهى تلهث ، المرأة النائحة ـ فلطمت وجهها وصوتت فى حدة ٠

ـ مات رجلى ياحاجة ، من لنا بعده !

قالت الحاجة فى بطء صوت متحشرج ٠٠

ـ اذكرى الله ياأم على ٠٠

وعادت المرأة الى الولولة ٠

ـ استغفرى الله ٠٠ انما نحن أمانة ٠٠ ماذا فى يدنا نفعله ٠٠

وتجمعت نسوة أخريات ٠٠ وجاء من أعلى صوت نائح ٠٠ وتصاعدت الأصوات حتى وصلت الى البيت ٠٠

وتجمع الرجال والشباب من أبناء الحارة ٠٠ كانت عيونهم منطفئة ، وقلوبهم مرتجفة ، لا يدرون ماذا يقولون ، أو يفعلون ٠٠ حط الموت فجأة ، فأصاب عقولهم بالتوقف ، انما هى لحظة العجز أمام الموت ٠

كانت جثة الميت قابعة على المصطبة ٠ تقدم واحد من الجماعة ، وأسبل عينيه وغطاه بملاءة ٠٠

وبدأ الرجال يتحركون ·· ويجهزونه للدفن ··

لمحت صابحة السيد جالسا القرفصاء أمام عتبة الباب ·· حزينا كئيبا واضعا رأسه بين كفيه ·· كان الرجـــال يروحون ويجيئون وهو فى مكانه لايبرحه ··

حرك رأسه حين سمع بكاء قريبا منه ·· نتر نفسه وتقدم الى الباكى الحزين ·· أخذه فى حضنه ، وأراح رأسه على كتفه وربت على رأسه ·· ظل فترة على وضعه الحنون ثم جذب يد (على) ولد عبد العليم ومضى به الى ركن قصى ··

ـ ماعهدتك ضعيفا هكذا يا على

ـ انه أبى !

تمتم فى حزن شامل ··

ـ نعم ·· كان أبوك رجلا ··

ـ ويستحق أن نبكيه ··

ـ أمام الموت لا يصمد أحد ·· فالعين تدمع والقلب يترجع · ولكن ما الفائدة !

كف الولد قليلا عن بكائه وقال :

ـ تعذب كثيرا فى مرضه ··

ربت بكفه على كتفه وقال

ـ لقد طهره المرض يا على ··

ـ أما كفاه الفقر والحاجة ··

واحتد الولد غاضبا باكيا

ـ الفقر يطهر بركة بأكملها

وصله المعنى وكاد يضحك ·· لكنه تبســـم ، وأدرك مافى العبارة من جمال حقيقى ·· كانت دائرة النساء تتسع ، وكانت أصوات الندب تتعالى ، فهب السيد واقفا واتجه نحوهن ·

ـ انتن تحملن الميت فوق طاقته ··

تبدد صوته وتلاشى بين أصوات النساء المعولات ـ فاحتد وعلا صوته ··

ـ أتشيعنه باللطم والندب · !

صوبت اليه امرأة نظرها حادا عكرا ـ وقالت ··

ـ بم نشيعه اذن !

ـ ترحمن عليه ·· اقرأن القرآن ـ أو اصمتن ··

تفرست فى ملامحه واحدة منهن وقالت لجارتها :

ـ أليس هو الذى يمر على الأبواب ·· يقرأ الفاتحة ؟

ـ انــه هو ـ

رفعت رأسها تجاهه وقالت :

ـ وما دخلك أنت ·· ! أ أنت قريبه ، أو واحد من أهله ··

ـ انني أقرب اليه منكن ··

وأخذه البكاء فجأة وخرج صوته مغموسا بالدمع ··

ـ أطعمنى من لقمته الشحيحة ، وأجارنى حين كنت غريبا فى عيونكم ·· وعلى يدى لفظ أنفاسه وهو يوصينى ··

تلفتت النسوة وعلت الهمهمة ··

ـ يوصيك أنت !!

ـ لم يبق الا الغريب يوصيه ·

ـ بم يوصيه ياحسرة !

ـ أوصانى ألا تولول عليه نادبة ، أو يشيع باللطم وشق الجيوب ·

أوصانى أن أقرأ على روحه الفاتحة ·· وأن أزوره كلما استطعت ، وأن أدعو له واستغفر له ربه ··

وخرج عن طوره وعلا صوته حتى سمعه الرجال فانتبهوا ··

ـ أين كنتم حين كان مريضا ؟ ماذا فعلتم وكان محتاجا ·· !

أشار بيده المتصلبة الى النسوة

ـ أدخلن ألسنتكن واكففن عن الولولة رحمكن الله ··

وحط صمت حزين على المكان ، وشمل الأجساد المنكفئة سكون هادىء ·· وخرج وفى يده على ··

همس أحد الرجال فى استياء ·

ـ انه يتدخل فيما لايعنيه ··

رد عليه صاحبه فى اقتضاب

ـ معه حق ـ فالموت حق فلم كل هذه الولولة ·· !

ـ وهل الأمر جديد علينا · ؟

ـ الحزن لامرأته وابنه ··

لبدت صابحة بجوار الحاجة ·· وعيونها لاتفارق السيد ، والهاجس الذى طاف على ذهنها يلح عليها ولايفارقها ·· أكان هذا ما يعنيه فى الصباح ؟ أوصل به الأمر أن يتنبأ فتتحقق النبوءة ! الأمر فوق العقل والتصور · سعلت الحاجة ، وانتفض جسدها ، ولاح العرق على وجهها ·· فالجو قابض ، والمكان يختنق بالأنفاس والحرارة ، وصخب النسوة يتعالى ·· كل واحدة تلزم أختها فى حديث ابتعد شيئا فشيئا عن الميت ، وجو الحزن ـ

خشيت صابحة على الحاجة فأسرت لها بأن تنهض الى بيتها والبركة فى الحاج ٠

ـ والواجب ياصابحة

ـ أنت صاحبة واجب من يومك ـ ولكن الكحة شديدة ٠٠ نهضتا معا ، وانسحبتا ، فالرجال قد أوقدوا المشاعل اســـتعدادا لمواراة الميت ٠٠ فاكرام الميت دفنه ٠

ـ حاجة ٠٠ لقد اخبرنى فى الصباح بالأمر كله

ـ أى أمــر !

ـ بموت عبد العليم ٠٠ لقد رأيته يدفـــن قالب الطوب فى الحفرة ، وهو ينظر الى آخر الزقاق ٠٠

ـ من ؟

ـ الســيد ٠٠

احتدت الحاجة ، وتوقفت عن المشى وواجهت صابحة ٠

ـ ما هذا الكلام ياصابحة !؟

مدت صابحة يدها ، وسوت من شال الحاجة الأبيض

ـ الصدق ما أقول

عادت الحاجة الى السير وعقلها مشغول بما سمعت ٠٠

ـ الله يكشف البصيرة عن عباده المصطفين ٠

٠٠ لاح المنظر ثانية وكأنه مجسد فى عقل صابحة ، لاتقوى أن تبعده عنها ٠٠ هذا الغريب ـ زرع نفسه فى البلد ، ويوما ، بعد يوم تتكشف أموره ٠٠ ترى ماذا تأتى به الأيام ٠

***

- ٣ -

حمل الصباح لها نداوة فى القلب ، وشعشعة فى النفس ، وتطريبا فى السمع واستثارة فى الحس ، فهيأت مشاعرها صورا متتابعة تتملاها وتنتعش بها . قليلة هى اللحظات التى تحس فيها بأنوثتها ، ويبهرها هذا الاختزان المدمدم فى الداخل خلف سد تصنعه بيدها وارادتها . ولكن الخدر اللذيذ يصاحبها ويستولى عليها .. ويرعبها فى نفس الوقت أن يمضى عمرها فى فتائه وجماله ولايخلف الا الوحدة وانقباضات النفس . وتتلاعب فى الذهن - تجسيدا - صور الذين لاحقوها فى بيوتهم وحقولهم وحول الأخبية المتطرفة ، تذكر أنها كانت تعانى من عبء المشاعر ، ولكنها لا تفرط فى نفسها أبدا .. ليست هذه الطريقة هى التى تبغى وتود - والا كانت من زمان قد سقطت فى بئر عميقة ترمى فيها بالأحجار والنفايات .. فى الفقر ووحشته ، يتبدى الأمر واضحا اما التماسك مع شظف الحياة والاستسلام لها واما السقوط عبر رغيف حار مدهون بزبدة سائلة - وكلاهما مر .. الاختيار قاس وهى على

الحافة من زمن طويل تتقافز خطواتها بين لسع النار وسوط الحاجة ..

ولكن ما بال الصباح يأتى على غير العادة ! يتملك الفؤاد حس مشبوب ، وعصب مشتعل .. وتراخى الأعضاء يشى بتحول نفسى يتغلغل فى دبيب راعش خفى ..

نترت نفسها من فوق الحصيرة ، وهيأت نفسها لمشوار كل يوم .. وحدثت نفسها أن هذه الأحلام لاتليق بواحدة مثلها تمضى صباحها على بركة الله تتطلع الى رزق يسوقه الله لها .. تكفى به نفسها وأمها العجوز .. فهى علىعوزها عزيزة النفس ، لاتمد يدا أبدا ، ولاترضى بالصدقات المغموسة بالرياء أو الرغبة .. سواء أجاءت على هيئة مال ، أو حبوب أو وطعام بائت .. فى المواسم كرمضان والرجبية ونصف شعبان والعيدين فان أمها لا ترد قاصدا بالخير أيا كان ..

طرقت الباب وانتظرت ، وورب الباب وأطل منه الوجه فابتسمت ودلفت

ـ الحاجة نايمة !

أغلق الباب وقال فى تردد بطىء

ـ أمى فى البندر أخذها أبى للطبيب

خبطت صدرها فى خشية حقيقية

ـ هل اشتد بها المرض ؟

تمتم فى ضعف ـ يعنى !

ـ ألم تطلب شيئا قبل السفر ..

أطبق عينيه وزم شفتيه وقال

ـ لا أذكر ، انما قالت ان جاءت صابحة فهى تعرف ما تفعل ٠

ابتسمت ودعت الله أن يشفى الحاجة ، وأن يخلصها من دائها اللعين ٠ وأن يجعل أيامها طيبة حتى تفرح بولدها الوحيد ٠

خامره شعور بالسعادة ، وهى تدعو ، وهو يرى فى داخله أنه لم يعد صغيرا ، وأنه على أبواب الحياة ، ماعليه الا أن يضع قدمه على العتبة ثم يدفع الباب ليمرق الى البهو الفسيح المطلى بالمباهج والفرح ٠٠

التفتت اليه ، فراعها أن ينظر اليها فى تحديقة مهومة ٠٠

ـ أظنك لم تفطر ٠

وضحكت ، وكانت ضحكتها اختلاجة قوية فردت الوجه والفم وأفسحت الصدر ٠

ـ لاتعرف أن تصنع لنفسك كوب شاى ٠٠ كيف اذن تدبر أمورك بعد أن تحصل على الشهادة وتعيش فى المدينة ٠٠

أجفلت عيناه ومال وجهه وعلت شفتيه كزة ثم فتح شفتين حمراوين وقال ٠

ـ البركة فيك

ـ يعنى ٠٠ أذهب معك الى البندر أخدمك أيضا ٠٠

ـ أمنيتى

نطقها فجأة ، فى سرعة دفقة الدم التى خرجت من قلبه ونفضت عروقه ٠

ـ أقسم نفسى نصفين نصف لك والنصف الآخر للحاجة ٠

ابتسم ونظراته عالقة بها :

ـ سيكون من نصيبى النصف الحلو ··

شدها كلامه ، وأدهشها أن يقول مثل هذا الكلام الحلو ·· ممن تعلمه ! من الذى أوحى له به : ·· ولـــكنها لم تبال ، لقد أسعدها أن تسمع نبراته الخشنة ، المتحشرجة وهو يبدى رأيه ·· واجهته بنظرات متفحصة ، وداخل مائع ·

ـ أى نصف تحب ؟

فط الدم حارا فلون الوجه ، واهتز حائرا ، ومشت أصابعه على الكتاب ـ وزاغت عيناه ولزم الصمت ، كأنمـا يهـــرب من الاجابة على السؤال ··

ابتسمت ، وفرحت أن الولد كبر ، وأنها فى الحقيقة ترضى العين ، وتثير العاطفة ولو من ولد ، تربى على يديها ·· ونعت حظها العاثر من عيون الرجال التى لاترى مثلما يرى ·· ومضت الى الحظيرة ··

ـ سأعد لك الفطار حالا ··

تسحب وراءها ، رآها تشمر ذيل جلبابها ، وتكومه فى تكة سروالها ، فبدت الساق مبرومة مكتنزة ، انحنت على « خن » الدجاج ، فغصه المنظر ، لاحقها وهى تبحث عن البيض أســـفل « الخن » من فتحة جانبية ·· أقعى باجنبها وطلب منها أن تترك له البحث عن حبات البيض · سحب رجليه الى الخلف ، وانحنى ، جاءت رأسه على صدرها كله ·· ولمست فخذها المنحنى · مد يده وظلت أصابعه تبحث ، كانت الأظافر تنبش التراب ، وتزيح نفايات الدجاج ·· أحست به ، ألهبها هذا النبض النافض الملهب من رأس الولد ، أرعبها هذا الوجيب الشديد الذى يهز رأسه وكتفه وصدرها معـا ··

خرج صوتها متهدجا لا تقوى على ضبطه ..

ـ انهض ، فالدجاج لم يبض ..

خلعت نفسها منه وهى تراه يتباطأ .. أيكون الولد قد فلت عياره .. سوت ثيابها واتجهت الى مكان آخر .. كان المذود مهملا ، وكان الدجاج يرقد فيه .. وكان واطئا ، انحنت وخدر الجسم مبهرا عين الولد .. فأصابته نازلة زلزلت كيانه .. تقدم منها ، وبارتعاشة يد مقهورة بقوة الداخل ، وخوف الخارج .. فرد أصابعه ووضعها كفا ساخنة على أسفل الظهر قرب الخاصرة .. وكأنما لسعها سوط الصهد ، فتوقفت يدها عن دس الأصابع بين تبن المذود . وفكرت أن الأمر بهذه الصورة لايرضـى ، وأن ظنها لم يخب ، وأن الولد كبر عليها دون غيرها .. انه يراها أكثر مما يرى أمه .. أمامه ، تخدمه ، تهش له .. ولكن رعشة الكف أيقظت عقلها .. ماهكذا تكون الأمور .

استقام جذعها . كان ذهنها يرى أنها لابد أن توضح لـه الأمر .. ويجب ألا تنسل ساكنة فيعاود التقرب مرة أخـرى .. « الولد مرعوش ومقهور ولا يدرى ما يفعل ويجب على أنا أن أفهمه وأعلمه مادامت أمه بعيدة عنه بمرضها ـ من الآن لن تغيب عينى عنك .. سألمح للحاجة أن تتنبه وتتيقظ ـ فالخطوة الأولى كرفسة ثور عفى » .

وما أن أقامت جذعها ونظرت اليه .. حتى انخلع فؤادها كلية ووقفت مذهولة ممرورة ، محروقة ، كأن هبة نار متأججـة وصلت الى داخلها كله فأشعلته .. وطالت القلب فلوته وعصرته .. هذا الواقف أمامها مستندا الى الجدار تبرق عينه فى لمعة وامضة على حين كانت ساقاه لاتقويان على حمله .. وكان وجهه مذعورا مأخوذا ..

ووقفت ساكنة لا تدرى لم عصاها القلب ، فدب عنيفا جوفها وصدرها وحشاها ·· تقف أمامه وخدر المخزون كله يتسرب فيحط عليها ، وينسحب في تنميل مرعش حتى أدق عصب وأدق احساس · هاهو فلقة البدر الذى كانت تحمله نائما ، وتسحب عليه غطاءه ، وتضم ساقيه ، يقف أمامها ، تلمع عيناه لمعة الرجل ينتظر الوصال ويدفعه الوجد · وتومضان ومضة الرعد يخرج من ظـــلام كثيف يعتريه ·· انها تحس به ··

حط على المكان صمت رهيب حتى خيل اليها انها تســـمع النبض ، وحركة الحشا ، وصور الذهن ·· كان الكتاب فى يده لايزال مفتوحا ، وأصابعه ترتعش فوق جلدته وجســـمه ينتفض وتهرب عيناه الى الكتاب تغـــوص فيه ، وينخبط الجفنان وهـــو يرمقها خلسة ·

أنا معه فى بيت واحد ـ والبيت ليس ككل البيوت ، انه البيت الرحم · تدخله وتخرج منه الواحدة من أهله · أبوه أعطانى ، وأمه المريضة تغدق على ، وتوصينى به ·· وهو أمامها كالمسكين ، ·· وفجأة فاضت عيناه ، سقطت الدمعة ، وسقط الكتـــاب وارتعد · وضحكت فى داخلها ، فرحت أن يصبح الولد الصغير كبيرا دون أن يدرى أحد فى البيت · هالها أن ينظر اليها كرجل وهو الصغير حتى الأمس ··

نروح ونجىء ، أصنع له الطعام ، وأقدم له الشاى وأجلس أحادثه ، ويقول كلاما حلوا ·· يفرح القلب ·

كان كل شىء سهلا ، لم تتصور أنها تثير فيه كوامن مشاعر متأججة لا تقف عند حد ·

وما كانت تدرى وهى تجالسه ، وهى تتحرك ، وهى تكشف نفسها ، وهى تغير ملابسها ، وهى تصطاد نملة فى أعلى الورك · وهما يدخلان حظيرة الدواجن ، وهما يختلطان ، وهو يضع رأسه على الفخذ لينام ، وهما يأكلان ، ويغتسلان ···· ما كانت تدرى وهى تفعل ذلك كله ، أن الولد نما عليها ، فنما فيه ما تراه فى العين الآن · أخذته من يده ، سحبته وأجلسته · جلس منقادا لها ـ على المصطبة ـ كما كان ينقاد لها فى سعادة تغمره · تملته وهو قابع فى وداعه ، ففرحت به كما لم تفرح من قبل ·· واجهتها مواقف الرجال ، ولكنها لم تعجز أمام أحد عجزها أمامه · لقد شب فى عينها فجأة وهاهو يريدها · يريدها بطابع الصغار ، صغار المراحل الأولى · اللمسة ، الرعشة التهيج ، الدمعة الساقطة التى تكشف عن هول ضاغط وأسياخ من الحديد تتمدد ·· ونظرت اليه وضحكت ·· فانكمش الولد ولبد · وتبسمت فى حياء مقصود ، فترجرجت الرغبة فى العين ، واغرورقت بغيمة مليئة بالقطر تنهل فى سخونة وامتداد · مدت يدها ومسحت بلولة الخد ، ومد يده ولمس يدها بأصابعه المرتجفة ، ثم قبض عليها · أغمضت عينيها وأجفلت وظل قابضا على اليد ·· وعيناه لاتكفان · وهوى قلبها لمرأى الدمع ··

هذا الصغير ، صغيرها ، تائه ، حائر ، يعيش فى البيت بين أم مريضة ، وأب لا يفرغ له ·· والولد المتعلم يكبر عليها ، وهى التى تطعمه ، وتشبعه ، وتغطيه ، وتنظف حذاءه ، وتغسل ملابسه · وأيقنت أنها لاتقوى على الصمود أمامه · وأنها تحبه · وأنها لم تدرك ذلك الا اللحظة ··· كانت تخاف عليه اذا تأخر ، وتطمئن عليه قبل أن تمضى الى أمها ، وتستيقظ مبكرة وتوقظ البيت كله من أجل أن تعد له الطعام والشاى قبل أن يذهب الى المدرسة ، بل

كانت تساعده في ارتداء البنطلون وتشد الحزام على وسطه ·· كانت تتصور أنه مسئول منها ·· فظلت حوله ، حتى ملأت صدره وغطت على فراغها بفعل يشبعها ··

وأفلتت يدها منه ··

كان الشعور رضيا وهى تفعل ذلك ·· وما دار على الخاطر لحظة شيء مما يحدث الآن ·· بل لم تتصوره في لحظة من الزمان ·· لقد حكم شعورها طوال هذا الزمان شعور المرأة تفرش غدائرها غطاء يحمي الابناء ·· ولكنه الان سحب منها هذا الشعور وطرق الباب ولم يتوان فدخل ، فهز فيها شعورا كامنا حرصت أن تنحيه ، ولكنه يتراكم منضغطا تحت قشرة رقيقة متصلبة ·· منذا الذى يستطيع أن يسلخ منها هذا الشعور الذى نما على مهل ·· فى خفية واستتار ! بل منذا الذى يقوى على وأده بعد أن أزاحت عنه غشاوة الأيام الطويلة ! ومن يجبرها على الارتداد ويأخذ منها لحظة اكتشاف نادرة !!

كم أرونى أنفسهم ولكننى صمدت ·· ولكن الولد الصغير استطاع متفردا أن يرينى نفسى ويعريها ، ويكشفنى ، ويفضحنى ، وأتلذذ بكشفه ، وأكاد أذوب أمامه بل وأكاد آخذه ··

كان جميلا وحلوا ، وحائرا ، وهو ينتظر منى أن أفعل ·· أن أمد يدى ، أن أقبل عليه · أن يدفعنى ، وأدفعه مثلما كان قبل اللحظة ··

كان كل منهما ينظر الى الآخر ، والقلق معقود فى العيون ، والرغبة مصلوبة فوق انفراجات الشفاة · وظلا يترامقان ، حتى تصلبت عيناه فوقها وما حادت ··

وهمست فى خفوت يكاد يحاكى سريان الدم فى الأوصال ·

ـ ولكنك صغير ٠٠

جاءه المفتاح وفهم الاشارة ، وحل الشفرة ، فهب واقفا ٠ بدت الدنيا أمامه عريضة منفسحة تتلألأ بثريات من الاعناب الطازجة وحبات متفتقة من رمان مكتنز ٠٠ وتصور أنه يخترق سياجا لمرعى ، ولميعد أمامه الاالزرع يرعاه ، ويرشه ، ليصبح دوحة معشـــبة بالخضرة ، تتبدى فيها سيقان الذرة سامقة ، مترعة بالثمر المكتنز ٠٠ وقال لها كلاما حلوا منغما ، له تأثير السحر ، يدخل الى القلب مباشرة بلا التواء ، ولكنه يحوى حنانا شفيفا يرقد على الحس فيرققه ، كما ترقد المواويل فى حضن المتعبين فى الليالى الطويلة ٠

ـ لو تزوجت لأنجبت ولدا مثلك ٠٠

ولكنها حتى هذه اللحظة لم تتزوج ٠ ولم تجرب تلك الشعرة الدقيقة التى تفصل عالمين ٠٠ وكيف تدرك ذلك ولم يرغب فيها أحد ، أو يخطبها انسان ٠٠ وان طمع فيها الكثير ٠٠ كانت تراه زاهيا فرحا وهو يتواصل معها فى كلام حلو ـ لقد نفذ الى القلب وعكر ما استكن فيه ٠٠ لقد ازدهى جماله ٠ واستوى الفرخ الذى رعته ، طائرا ينقر ، ويدس منقاره ، وهى أمامه مأخوذة به ، مبهورة به ، ٠٠ صنع اليد التى ربت ، وأعطت ، ولكنه صغير ٠٠ صغير أنت ٠٠ ولكنك تتقافز على قلبى وتقفز فوق مشاعرى ٠

وتملته مليا ثم قالت فى نشوة ٠٠

ـ كبرت فجأة ولم ندر

وأعادت بصرها اليه تحتويه ٠٠ كان الولد طويلاً ونحيفا ، ولكنه كان عفيا ، أهو ذلك الذى كان يلبد فى حضنها ، وتأخذه بين ساقيها ، وتحوطه بذراعيها ، وتغمس فى أذنيه وشوشات المليل

تطربه حتى ينام على حكايا المردة والجن ، فينكمش لابدا ، وعلى حكايا الزير سالم والشاطر حسن وست الحسن فيتراخى ويتمدد ··

ما كانت أمه تقوى عليه وهى المريضة لاتقوى على الحركة القوية ··

هذا الذى أمامها ، كان لابدا دوما لها ·· ولم تغط للأمر بالا ··

كان ذلك منذ فترة ، وكيزان الذرة مترعة ، مشرئبة كالسهام تتوج عيدان الذرة بنضج متفتق ·· وكانا يقلمان العيدان ، ويجمعان الورق الجاف ، وبعض الأعشاب ، كانا يمرحان ، ويلفان حول العيدان ، ويتسابقان من يجمع أكثر ! والأوراق حولها ترف فى ضحكة عجلى ، وكانت تكوم الأذرة وبعض الحشائش فى حجرها ·· وهو يلقط الاعشاب ويضعها فى الحجر ، ويلتقط الكوز ويطوحه بيده ويدسه فى الحجر ·· كانت يده تلمس صدرها ، وأصابعه تنفرد ، فتحس ببطن الكف يلامس الجلد ·· وكان الولد فرحا منتشيا كلما وضع يده ، حتى اذا انتهيا وضع يده ولم يخرجها · كانت اليد ترتعش وسط كومة الحشائش والكيزان · وفوق مساحة البطن ·· وللحظة خاطفة ، لحظة صغيرة جدا ·· لحظة أن أحست بالسخونة ، وباليد المتسللة وبرفة الورقة ، وحركة العود ـ واكتناز الكوز ، لحظة أن بدا فى لمعة العين طائر يحوم ·· خلعت نفسها فجأة ، من لحظة هابطة ومضت به راجعة ·

وأحست بحمرة تطفو على الوجه ، وبخجل لم تعهده وهمست كأنما تحدث نفسها :

ـ كيف لم ألحظ وقتها ؟

ورمقته فرأته قد كف عن الكلام فجأة ، وأصابته رجفة ، وبدا الدمع ينعقد فى العيون ·· وابتسمت له ·· نهضت وهو يستند

بجذعه الى الجدار · وهو يراها جالسة لاتأبه به ·· بدا الجمال الطازج الطرى مغطى بكآبة حزينة ·· وسـقطت الدموع ، ولاح الجسد مرتعشا لاتقوى الساق على حمله · وكان قلبها يلتوى عليها وهى تنهض اليه ·· وغمرها حزن غويط ، وانهل على قلبها خوف على الولد ·· فبلل العين ، والخد ، وحرك الحشا · كان ينظـر اليها ، كأنما يستجديها ، وهالتها النظرة ·· صنع اليد ، يستجدى بالنظرة ، ويستجدى من ! يستجدى صابحة · التى ربت وأعطت وغطت ··· وصغر فى عينيها كل شىء · نسيت نفسها ، وحالها ، وما يمكن أن يحدث ، الا أن ترى الدمعة معقودة على الأهداب ، مغموسة بنظرة استجداء حزينة ·

وبكت صابحة · بكاء لم تعهده من قبل ، وانتحبت على عمر طويل ، وعلى عمر سيأتى ·· كنت أبكى فى نشيج يهزنى ، وكان يضع يده على كتفى ويبكى ، ألقى بنفسى بين ذراعيه وأبكى ، أريح رأسى على صدره ويبكى · بدا لى للحظة أنه رجل قوى كامل القوة يحمينى من غدر الزمان الآتى ·· فاذا به يضع قدمى على شاطىء بحر متلاطم يأخذنى موجه العتى فى دوامة لا ترحم · وكان دمعى لا يجف ، وكان ينهمر وأنا أهتز يتساقط وأنا أنتفض ، يتقاطر وأنا أذوب فى حضنه ·· حضن الولد الصغير ، صـنع اليد · تأتينى شفتاه ، فألقى بجسدى كله عليه ، كان كالعصفور ينقر ويحوم ·· وسط الدموع ، وبين ذراعيه ، وأمام عينيه اللامعتين ، ووجهـه المحمر ·· ضغطت عليه ·· وأنا أرى نفسى فى الزمان بين موجتين عفيتين ـ وأخذته كله ··

·· وجاء مولد السعادة ، فى موكب الدمع ، وغمر القلب الطوفان ، وانعقد الغيم فى الأفق وتلون بقطرات الدم الحمراء ، واهتز على ارتعاشات نفس مقهورة ··

* * *

ـ ٤ ـ

لم ترحمها العيون وهى ترى بطنها تنتفخ يوما بعد يوم ٠٠ هذه البنت التى حافظت على نفسها طويلا سـقطت ، ومع من ! كان السؤال حديث الزقاق ثم امتد حتى شمل الناحية كلها ٠٠ عجزت عن مواجهة العيون فقل خروجها ، وانعزلت عن الناس ٠٠ كيف تسير وفضيحتها مطروحة على الملأ ٠ لم يعد يهمهـا الأمر ٠ فى أعماقها رضى بأن مافعلته قدر مكتوب عليها ، وأن عطفها على الولد وعجزها عن مقاومة عينيه الباكيتين كان وسـيلة لاختراق سهم القدر ليصيبها فى مقتل ٠ ذبيحة تترنح أطرافها من الألم ٠

حين ضيقت عليها الحاجة بسؤالها الملح ٠

ـ قولى ياصابحة ٠٠ من هو !

ـ وما الفائدة ياحاجة ٠٠

وتخبط الحاجة صدرها بيدها كلية وهى تسعل ٠

ـ كيف ! سنجبره على الزواج منك ··

وتفرست فيها ، وعيونها تدمعان حرقة وألما وضياعا ·

ـ أنت ياحاجة !

ـ لا تتهربى ياصابحة ·· الحاج يقوى على ذلك وأكثر فقط أخبرينى ، بحق الأيام والليالى ، وبحق مابيننا اخبرينى ·

وتنكفىء صابحة على نفسها ، جسدها لايقوى على حملها ، رعشة تملكتها ، فبدأت تخبط الأرض بكفيها وتنهنه ·

ـ انه قدر ياحاجة ·· قدرى أن أعيش حتى أرى نفسى ملعونة ، ومطرودة من رحمة الله ومن الناس ··

وتجلس الحاجة بجانبها ، تهدىء من روعها ، وتخفف عنها ·

ـ كل شىء قابل للعلاج ·· انطقى قبل أن يفوت الوقت ··

ـ لا أستطيع ·· آه لو تعرفين ·· لا أستطيع ··

ـ أهو من الحارة !

ـ قضاء الله ياحاجة فلا تلومينى

وتحدتد الحاجة فى وجهها

ـ قضاء الله قال لك أن تفرطى فى نفسك ·· قضاء الله قال لك أن تحملى فى الحرام ·· أين كان عقلك ؟ ونحن من كنا نتباهى بعفتك وطهارتك ·

ـ والله ماكان على البال أو الخاطر ··

زمجرت الحاجة فى صوت مشروخ ·

ـ دعك من هذا الكلام ·· انا أمـــرأة واعرف ان مثل هذا الفعل لايتم فى الحلم · أو يتحقق فى الخاطر ··

وقبضت عليها بقوة ، وهى تنهرها بشدة

ـ انطقى من هو ! · والا فلا تعرف قدمك الطريق الينا ·

بنظرة منطفئة تحمل ضياع الدنيا كله :

ـ تتخلين عنى ياحاجة

ـ حتى الآن أقول لك ·· من هو ·· ! ثم لاتحملين هما ·· سينصلح كل شىء ··

ـ لاأستطيع ـ لأننى أحبكم لا أستطيع ··

ـ اكرهينا وقولى من هو ! ·· أنا أبقى عليك ·· تصورى حالك وأنت تحملين طفلا ليس له أب والعيون تدينك كلما رأتك ··

وراحت فى نوبة عويل ·· تولول ، وتخمش وجهها ··

ـ لاينفعك البكاء ··

ـ تحملينى على هذا الوضع

ـ لا أقدر ·· بصـــراحة فأنا أخشـــــى على البيت منك ·· السمعة رأس مال ، وعندى زوج وولد ·· أخاف عليهما منك ··

بدهشة مباغتة ، انفتحت لهـــا عيناها ، وفمهـــا وانفردت ملامحها ··

ـ منى أنا ياحاجة !

ـ لا تؤاخذينى ·· الحرص واجب ·· وانصـــحك مادمت تصرين على الانكار أن تلزمى بيتك ولاتخـــرجى حتى يفعـــل الله مايشاء ··

وللمت نفسها ، وخرجت ·

كان الوقت يمر طويلا حادا ، يقطع العصـــب منها · حجزت نفسها ، فاحتجزت مشاعرها فى قلبها وبين جدران كالحة ، كانت حريصة على أن يبقى الحال على ماهو عليه ·· ولكن الأم فى حاجة الى رعاية ، والى طعام فالعجز أصابها فى كل شىء ··

فى المساء كانت تتسحب وتخرج الى خارج الناحية بعيدا تجاه الشمال ·· فالناس هناك لايعرفونها وتستطيع أن تنال طعامها وتأتى به الى أمها العجوز ··

ــ عين الله ترعانى ·· بالرغم مما فعلــت ، فالله لن يتــرك المقطوعين من شجرة أمثالى ·

لاتدرى كيف سمعها ، وكيف وصله الصوت ، فى هزيع الليل الأخير ··

كانت قريبة من خط النهاية بالقرب من القبور ·· حيث البيوت الطينية المتناثرة ··

علا صوت الرجل قائلا :

ــ من هناك ؟ ·

قبضت ويديها على اللفة التى معها وتسمرت فى مكانها ··

تقدم الرجل نحوها ، حتى أدركها

ــ من أنت :

قالت فى خفوت ينبىء عن انهدام حقيقى أصابها

ــ على باب الله ··

ـ من الناحية !

ـمن بعيد ··

ـ ألك أهـل · ؟

ـ مقطوعة من شجرة ··

تفرس الرجل فى وجهها على قدر مايسمح به ضوء النجوم

ـ أتعملين معى ·؟

ـ خادمتك ·· ماذا أعمل · ؟

ـ تخدمين فى البيت ··

وكأنما نداء القلب المفجوع فى عتمة الليل قد رقق قلب الرجل فمضى بها الى داره ودخلت البيت وعاشت فيه ·· تذكر أنها لـم تره الا لماما ، البيت خال من أى شىء ·· لا امرأة ، ولابهائم ، ولا شىء ينبىء عن حياة أسرية ·· حجرتان ، وفناء ، وسطح بـه بعض من عيدان الحطب والقطن ·· لم يعد يهمها الا أن تسـتكن بعيدا عن العيون التى تعرفها ·· وفى الليل تنسحب الى الزقاق متخفية ، وتدلف الى دارها ·· وتمضى مع أمها فترة ، تقدم لهـا الطعام والشراب ثم تعود الى حافة الناحية من جديد ··

حين طرق الباب فى غبشة الفجر نهضت من نومها مذعورة ·· واتجهت شطر الباب وأنزلت « السقاطة » ··

ـ أنت · !

ومرق الرجل وهو يلهث لهاثا متواصلا ··

ـ لاموعد لك ··

دخل مسرعا الى الحجرة ، وخفف من ملابسه وأشعل سيجارة

ـ كأنك تخاف من شيء ··

تتابعت موجات الدخان ، وهو يتكيء على ذراعه ··

ـ أظنك جائع ··

ـ أعندك شيء يؤكل ؟ ·

ـ خير الله كثير وزاده وفير ··

ـ مم وليس فى الدار شيء ··

ـ الله لاينسى عباده ··

أقبلت بهمة وصنعت طبقا من البيض ، وقدمته له معه قطعة جبن ، وبعض عيدان من الفجل الأخضر ·· وهى تدعو الله أن يبعد عنه الخوف ،وأن يؤمنه ·· فهو الوحيد ـ الذى لاتعرف عنه شيئا ـ الذى أواها وسترها ·· فى بيت شبه مهجور لاحياة فيه · وأجمل مافيه أن العيون لاتراها بحالها التى فيها ·

أقبل الرجل على الطعام بنهم شديد ·· حتى بدا لها أنه لم يذق طعاما من مدة ·

حين انتهى من الطعام شرب الماء وتجشأ وأشعل سيجارة

ـ بالصحة والعافية ··

ـ دعاء غريب لغريب مثلى يخلع القلب ·

رددت وهى تتملاه فى حنان حقيقى ··

ـ ماغريب الا الشيطان ··

ودت لو تعرف شيئا عنه ، ولكنه كان كتوما لايبيح بسره ، ترى من هو ! انه لم يسأل عنها ، ولم يتحر أخبارها ، ولم يضايقها بسؤال يحرجها منذ أن وطأت قدماها هذه الدار النائية ··

ولكنه هذه الليلة على غير عادته ..

حين قبض علىكوب الشاى ورشف منها رشفة ، وتحلبها فى لذة قال فى تؤدة ..

ـ متى ستلدين ياصابحة . ؟

غاص القلب الى القاع ، وجاءها الخوف غازيا .. وشملها اضطراب ، وخشيت أن يكون قد عرف شيئا عنها ، فابتهلت الى الله سبحانه أن ينهى الليلة على خير ، وأن يشغله الله بشــاغل يبعده عنها .. فلم يعد لها مكان تلجأ اليه الا هذه الدار .. أين سأمضى حين يعرف ويطردنى ..

ـ مالك أتخافين من الولادة . !

ـ انها أول مرة .

نظر الى وجهها فاستراح له ، والى بطنها المنتفخة فضحك ..

ـ ماذا تسمينه ..

وضحك وعلت ضحكته حتى خشيت أن يكون أصابه مس

ـ ان جاء ولدا فسميه على اسمى ..

ـ وان جاءت بنت ..

لازم الضحك عاليا وقال

ـ سميها على اسمى أيضا ..

ونهض فجأة ، ولبس ملابسه ، داخلها شعور بالقلق ..

ـ الى أين . ؟

واجهها وزمها فى قوة ـ وعيناه تحطان عليها ··

ـ اسمعى ياصابحة ··

وضع المسدس فى جيبه ، وحبك الشال على وجهه فلم يعد يلوح الا عينان قويتان نافذتان ·· وارتجف القلب ، خشـــيت أن يمضى كعادته ويغيب دون أن تعرف عنه شيئا · هذا الرجل تغلغل فى نفسها · أضفى الأمان عليها ·· ولكنه بعيد عنها ··

فجأة مدت يدها وقبضت عليه ·· احتجـــزته فى قوة كأنما تخاف عليه أن يمضى ولا يعود وقالت فى صوت يرشـــح بحنين خائف ··

ـ لا أسمع حتى تقول لى الى أين أنت ذاهب !

ـ أتخافين على ؟

ـ أكون جاحدة ان قلت لا ·· أنت أويتنى حين تخلى عنى الناس ··

ـ لاتقولى هذا ياصابحة ··

مد يديه وخفف من قبضة أصابعها عليه وقال ··

ـ الغرباء أقرباء ··

ـ لا تخلع قلبى بهذا الكلام ··

ـ تلك حقيقة ··

تحددت دمعات ساخنة فأسرعت بكفها تمسحها ، قبض على يدها وقال

ـ دعيه ينزل فقد يخفف عنك ··

تمالكت نفسها واطمأنت الى صدق مشاعره ·· وقالت ·

ـ لم أعد أعرف غيره ·· حتى أويتني ·· بالله عليك قل لى الى أين ؟

تنهد فى عمق ورنا اليها فى ضعف وقال

ـ صدقينى لا أدرى ·· ولكن اذا عدت سيكون لى معك شأن

ـ لاترجف القلب ··

وهو يتهيأ الى الخروج ، وقد حسم الأمر ·· قال :

ـ الدار دارك فالزميها ولاتخشى أحدا ··

لم تقو على رؤيته وهو يمرق هاربا ويخلف وراءه وجعا فى القلب ·هذا الذى ظهر فجأة فى طى الليل ، وأخذه الى ظلمته ومساره الذى لا ينتهى · لم تمر فى حياتها برجل كهذا الرجل ·· لم يحرجها بسؤال ، ولم يخدش حياءها بنظرة ، ولم يتجرأ عليها بلفظ أو بلمسة · كان وجوده كالنسيم سرعان ماينتهى ويحل محله صهد يقبض على الأنفاس · وخنق قلبها وهى تشيعه بنظرة حزينة متلهفة ·· وتمنت فى أعماقها أن يعود ·· وأن يقر فى داره ·· سيجدها منتظرة ، وسيرى من داره المكان الجميل ، الذى يريحه ويجذبه ، ومنها اللمسة الحانية والقلب النابض ·· ليتك تعـــود ولاتتأخر ·· لقد غزوت القلب وتســـيدته · وتعجبت كيف تتحرك مشاعرها على هذه الصورة المفاجئة ، وفى هذا الوضع الشــائك الذى يحاصرها ··



ـ ٥ ـ

حمل الصباح لها ألما فى الجسد وثقلا فى الحركة ، وارتعاشات عصبية فداخلها هاجس الولادة فكاد يغمى عليها ‥ وطافت عيناها فى المكان ‥ الجدران الكالحة توشك أن تطبق عليها ‥ والوجع يضرب ظهرها بقوة · تمتد اليدان تسند الظهر وتضـــغط عليه ، مصيبة أن يحل الموعد وأنا وحيدة لا أم ، ولاقريـــب · ولا الداية التى تسعف وتخلص وتريح ‥ اشتد الألم فنهضت واتجهت الى الحجرة القبلية ‥ المكان بعيد والجدران الصماء تمنع الصوت وتحجبه ‥ وأرضية الحجرة طينية ‥ وانكفأت على نفســـها وأسواط الألم تلسعها ‥ مشى الألم منتظما فى كل جســدها ‥ لاتدرى أين تضع يدها لتمنعه ‥ العيون جاحظة ، والعرق ينز ، ووجل شديد أن تكون النهايـــة فى البداية ‥ من يخلصنى منه ! وتصرخ فجأة ، وتتنبه الى أن الصراخ علا ، فتكتمه ، والآهات الحادة تواكب الضربات الموجعة ، كتمت فمها بخرقة مبللة ، وكادت تنطرح على الأرض ‥ الصمت يحيط بها · ولا يقطعها الا آهـات

مكتومة حادة ·· وينطلق بصرها الى أعلى ، يرتطم بالسقف ، ولكنها تشعر فى اللحظة كأنما السماء تطل عليها من عل زرقاء مسودة الاطار ـ صرخت فى حدة مدغومة ·· لطفك يارب ··

جفلت فى ترنح وهى تحس بمياه تغرقها ، لا تقوى على ضبطها أو التحكم فيها ·· تلك النهاية ، ستموتين وحدك فى هذا المكان ، وتصبحين طعاما للدود ·· من يعرف مكانك الا هو ··

ـ يارب أنت قدرت فاحكم برحمة ·

ويعاودها الضرب ، ويشتد الطلق وهى تترنح ، وترمى بكل أعضائها المتقلصة ·

ـ ليأت بك الله ··

وتزوم ، وتمتد أصابعها تنهش تراب الحجرة ، وتقبض بالأصابع ·· والضرب يشتد ، والبطن تتدلى ·· والسقف فى عينها سماء موصودة ، والحيطان تتقارب حتى تكاد تضغط عليها ·· لافرجة ، ولا أمل ·· الموت جاء سريعا

ـ تدفعين ثمن عطفك ·· من يحس بك الآن ··

وتمتد يدها الى قطعة طويلة من الخشب · أيجب الاستسلام ؟ الفعل جاء على غير رغبة حقيقية ·· تلك ارادة الخالق ·· لو لم يرد ماكان ·· وضعت قطعة الخشب بين ساقيها ، القدم اليمنى عند طرف واليسرى عند طرف آخر ·· شدت القطعة الساقين وأفسحت المسافة ، تعرت تماما ·· ليكن الموت على هيئة ماجئت الى الدنيا ·· والعيون زائغة ، والجسد ينتفض ، والصراخ المكتوم يتوالى ·· واللهاث لاينقطع ·· والعرق يتصبب ، وهى تضغط بنفسها الى أسفل ·· العالم لن ينتهى هنا ، والأم لها الله ، وما فى

بطنى الى الأرض او الى الدنيا ·· وتحزق بشدة ، ويتكوم الضغط ، والضرب يشتد أسفل البطن ، والرحم ينفسح شـيئا فشــيئا ·· والساقان مفرودتان محكومتان بالخشب ·· والرعشة تنفضها ، وعقلها مركز أسفل البطن ·· لايغيب عنها هذا الدبيب الثقيــل الوطء وتلك الكومة خلف الرحم تتربص بها وتضغط ·· وهى تكز على الأسنان ، اهترأت القطعة المبلولة وتدلت على حافة الفم ، وهى تكز ، وهى تلهث ، والأصابع تنبش الارض ، والاظافر تدمى من هول الفعل الدائم فى النبش ·· والبطن عند الرحم تتكوم وتتكور ، والطفل عند الجدار يتربص لحظة ضغط عفية تخرجه الى الدنيا ·· وهى منطرحة مفرودة الساقين ، تشب برأسها علها ترى شـيئا ، الدماء والماء ، وانضغاط الرحم ·· والهول يزحف شديدا ثقيلا ·· وابتهالات العيون شطر السماء تقطر بعجز جاثم ، والحزق ، يتوالى والقلب كاد يتوقف والأنفاس المتلاحقة أتعبت الصدر ، وزحفت بزغللة الى العيون وخدر فى الدماغ ·· وتفذيق ·· ليس الآن · اللهم عونك ·· وتهبش جسدها وتراب الحجرة ، وتفرد الساقين أكثر ·· لو أن أحدا يأتى ·· ينقذ الموقف ولو رمحت الفضيحة فى كل مسار ·· أعنى ياصاحب الارادة ·· ليس بيدنا شىء واختلج الجسد وكأنما قذف بآخر مايمتلك من قوة · كان الجسد هو الذى يفعل ·· هو الذى يراكم الضغط والشد والفرد ·· حتى لان الجدار المستعصى وانفلتت رأس مدممة ·· خرجت وأخذت معها البقية الباقية من القدرة على الفعل · وراحت فى اغماءة ، والرأس لاتزال بين الساقين كالكرة اللاصقة ··

·· وطرق الباب فى حدة ، ولما لم يفتح ، ضغط عليه بقبضته القوية وساعده العفى ومرق مسرعا الى الداخـــل ، وهو ينادى متلهفا · صابحة ·

لم يسمع صوتا ، ولاحركة ، فالصمت طرز رداءه وسحبه على المكان كله ٠٠

خطا خطوتين فكان فى قلب الحجرة ، أذهله مارأى ، الجسد ممدود فى تراخ ، والرأس منطرحة الى الأرض فى اغفاءة ، واللهاث يتردد بطيئا ، والرأس تطل ٠ انحنى فوجد كل شىء ساخنا ، امتدت يداه وشمر ساعده ، أحاط الرأس ، وشد العضـــل المتراخى ، وضغط فى شدة ، سحب الرأس فاستعصت ، أدلف يده الى الداخل فى قوة ٠٠ وتحركت أصابعه ، وسعت المخرج ، فبدت رقبة الطفل محاطة باسورة من اللحم والدم ٠٠ تسللت أصابع يده الأخرى ٠٠ ضغط على اللحم فانفسح ، فانزلق الطفل الى التراب ٠٠ شـــاله ومسحه ولفه فى خرقة ، وواصل تخليص المرأة من الخلاص ٠٠ حين تلقاه بيده ٠٠ شعر باطمئان بالغ ٠٠ ورضى مريح ، عقد الحبـل عند السرة وقطع ٠٠ ولفه فى خرقة بالية ٠٠ مســـح على افخاذ المرأة ، وجفف الموضع ٠٠ وسترها بشاله وجلس يتابـــع الطفـل والمرأة معا ٠٠ كان الجسد ـ وهو يتحسس الجبين ـ باردا ٠٠ والعرق يفط من مسام الجلد حبيبات تنزلق ٠٠ أخرج منديله وجفف الوجه ، بانت ملامح الاجهاد عليه فالتوى قلبه حزنا ٠٠ وتذكـــر مصائر العباد فحمد الله أن ساقه فى الوقت المناسب ٠٠

ويختلج الجسد مرة ثانية حين تفيق ، ويخرج الصراخ حادا ٠٠ وترفع رأســها وتنظر الى أســـفل ٠٠ وتراه بجـــانبها ٠٠ فتصرخ

ـ ســـاعدنى ٠٠

وتمتد يدد اليها ، تربت على خدها ، وتمسح شعرها ،

ـ الله ساعدك ٠٠

وتنفتح عيناها مشدوهتين ، وملامح الوجه المجهد تنبسط

ـ ولدت ! ··

ويبتسم فى وداعة ، ويقول فى تبسط جميل ··

ـ ولد جميل الطلعة ··

ـ أراه ياسـيد ··

ناولها الطفل ، أرقدته بجانبها تتملى فيه ·· ورعشة مدغدغة تحتويها ·· واسهمت الى بعيد

ـ كيف جئت يا سيد !

ـ الله ساقنى اليك

ـ اكنت تعلم !

ـ أما كفاك أن الله يعلم

ـ الحمد لله ··

ونهض قويا شامخا ، فخشيت أن يتركها وهى لاتقوى على شىء

ـ الى أين · ؟

ـ أنت مجهدة ، ولابد لك من طعام يليق بوالدة ··

غاب قليلا ، ثم عاد وسأل عن سكين ، دلته عليها وابتسامة عالقة على الوجه تشى بامتنان آخاذ ·· وصلها صياح الدجاج ، وتكسير الحطب ، ورائحة الدخان فغمرها فرح داخلى لم تقو على كتمه ·· والتفتت الى الطفل ·· كان غافيا وطريا ، عيناه منطبقتان فى انتفاخ ، وفمه مزموم ، وأنفـه حبة جميز محمرة ، ومشـت

أصابعها فى خفة على جسده الملفوف · واغرورقت عيناها ·· واختلط فى مساحة الرؤية الصور والأشكال · وجاءها نداء خفى مغموس بألم لايزال ينبض فى كل عضو فيها ·· بأن لحظات الألم هى مخاض الأمل ، وأن السماء لن تظل فى اطارها الأسود الذى رأته ، وأن الايام لاتدوم على حال ، والناس تنسى ، والوقت خير علاج ، والولد لابد أن يعيش ، والحجر ألقم به الافواه ·· وأفقأ به العيون ·· لست أردأ من نسوة كثيرات يتسترن فى زواج ، ويأتين بأخلاط لا أصل لها ·· وأزاحت الشال وارتدت ملابسها فى صعوبة ·

ودخل عليها ، مهيبا رأته ، حنونا قلبه ، صـــافية عيناه ، منتشيا وجهه ·· يحمل بين يديه اناء يتصاعد منه البخار ، ووضعه أمامها ·· لمحت دجاجة ، وحساء ، فشكرت الله فى أعماقها أن هيأ لها من وقف بجانبها وشعرت بأن الله لايتخلى عن الغرباء ··

جلس بجانبها ، وأعطاها ملعقة خشبية ، وبدأ الحساء الساخن ينزلق الى الجوف فأحست بتحسن وانتعاش · وامتدت يده الى الشال ومزقه ·· حدقته فى دهشة :

ـ أنت بحاجة الى مناشف وبحثت فلم أجد شيئا ··

ـ سيد · أنت تفعل مالا يفعله قريب ·

ـ الغرباء أقرباء ··

هزتها العبارة فصحا عقلها واستدعت زمانا سمعت فيه نفس العبارة ممن أواها ومضى بلا عودة ··

ـ لا تتعجبى انما نحن غرباء ندب على الأرض الى أجـل محتوم ··

كوم المناشف ، وجمعها ووضعها بالقرب منها ، فشملها حياء وانطبق جفناها انطباقة خجل حقيقى ·· وتصورت نفسها مكشوفة تماما أمام عينيه فى وضع لايسر امرأة ، فنظـرت فى انكســـار واتجهت الى الطفل تتملاه ··

أدرك ما طاف بعقلها ، فامتدت يده بقطعـة من الدجـــاجة ووضعها فى فمها ··

ـ لاتشغلى البال ، بما لافائدة فيه

صادته عيناها مبتسما مشجعا ، ماسـكا فخذ الدجـــاجة وصدرها معا ··

ـ كل هذا !

ـ كل يوم من هذا ··

ـ من أين ياسيد ؟

ـ لاتحملى هما فليس أسهل من الأكل فى الدنيا ··

حين انتهت من تناول طعامها داعبها فى خفة ··

ـ بم تسمين هذا الولد « العكروت » ؟

وغامت عيناها الى البعيد ، ومنظره وهو يوصـــيها بلزوم الدار لايفارق الخيال ··

ـ سأسميه حسن ··

ـ ولم ·؟

ـ كان يتمنى ان جاء ولد أن أسميه على اسمه وان جاءت بنتا أن أسميها على اسمه أيضا ··

ضحك السيد ضحكة عالية ، يشع منها صخب مرتفع فسارعت

ـ لاتضحك كالصراخ ، فالحيطان لها آذان ٠٠

ـ ومم تخافين ، سيعلم الناس الخبر اليوم أو غدا ٠٠ يجب أن تواجهى الناس ياصابحة ولا تعزلى نفسك ٠

ـ ليكن الله معه ٠٠ لقد أوانى وسترنى ٠٠ ترى أين هو الآن !

ـ أعلم ذلك ٠٠ ولقد دللته عليك ـ أم أنك تتصورين أننى لا أعرف ٠٠ كنت أعد عليك خطواتك ، وحزنت عليك وأشفقت ٠٠ فيسر الله لى هذا الرجل ٠

ـ أتعرفه !

ـ كما أعرفك

ـ وأين هو ٠٠ من زمان لم يأت ٠٠

ـ طلبت منه أن يسلم نفسه ليأخذ القصاص وتتطهر نفسه ٠٠

خبطت صدرها فجأة فتألمت ، وندت عنها آهة كاوية ٠٠

ـ يسلم نفسه لمن !

وتفرس وجهها ، وصوب نظره اليها فى حدة ٠٠

ـ لقد قتل ، والقصاص حق ٠٠ حتى يقابل ربه راضيا مرضيا ٠٠ وحياة التخفى خير منها الموت ٠٠ ان لم تواجهى الناس فالأفضل أن تنسحبى من الدنيا كلها ٠٠ الحياة ليست أنفاسا تتردد فى أجسادنا ، الحياة فعل ٠٠ وقدر الله للفعل الجزاء والعقاب ٠٠ فمم نتخفى ؟ ٠

وانعقدت فى مآقيها غيمة مترعة سرعان ما انهلت على خديها ·· ورمقت وليدها وشهقت بالدمع ·· وتلون الوجه المجهد بكآبة واضحة ··

ـ هذا الطفل ، اللحمة الحمراء ، كيف سيواجه الدنيا ·؟

ـ ككل من يواجهونها ·· كفى عن الندب ، انه يأكل النفس ··

وأمامك مشوار طويل من أجل هذا الحسن ··

وابتسم وابتسمت ، مد لها يده مسلما فقبضت عليها وقربتها من فمها ·· تودان تقبل اليد التى امتدت اليها فى ساعة العسرة ، امتنانا ، واعترافا بجميل لاينسى أبد الدهر ·· ولكنه سحب يده برقة وهو يضحك قائلا ··

ـ هذا لايليق ، انه ابنى فلا تحزنى ··

ـ ابنك !

ـ سأمضى ، وأسجله باسمى ·· حسن السيد ، أليس له وقع جميل · !

واختلط الضحك بالبكاء ، والتمعت العينان ، وافتر الثغر ، وسرى الدم الى الوجه فخضبه ·· وانتفض الصدر ، وتحرك عرق اللبن ونبض ، فألقمت الوليد ثديها ، وعيونها لاتكف عن البكاء وعيونها تطل فيها لمعة بارقة تنير الكون كله ··

* * *

- ٦ -

حمل الغروب نسيما صيفيا رطب قليلا ماخلفته سخونة الشمس طيلة اليوم فبدأت النسوة يخرجن ويجلسن أمام الأبواب يثرثرن فى شئون الطعام والعيال ·· فى أعلى الزقاق وفوق حنية بارزة جلست أم السعد كعادتها كل يوم تجدل أوراق الخوص الخضراء ، لتصنع منه ماتحتاجه وتبيع الفائض ·· وكانت أصابعها تلتقط الأوراق فى دربة تعودت عليها لخبرتها الطويلة ··

ناوشتها امرأة تجلس فى مواجهتها

ـ لا تملين أبدا يا أم السعد

امتدت الجديلة أمامها تتلوى طالعة من حجرها الى الأرض ·

ـ انما نضيع الوقت

عاودت المرأة حديثها وهى تتامل أم السعد فى حركتها الدءوب ، واصابعها الدودية وهى تشبك الأوراق وتجدلها ،

وتضغطها حتى تتماسك ‥ والفم يقبض على أوراق تنتظر أن تمتد اليها اليد لتدخل فى النسيج المحكم الذى تقوم به المرأة فى هدوء وارتياح ‥

ـ صنعة فى اليد خير من سؤال اللائيم

نزعت أوراق الخوص الخضراء وقالت :

ـ لولا الحاجة والعيال ...

قاطعتها المرأة قائلة وهى تلوى رأسها .

ـ الحال واحدة ‥ وهم العيال كبير

رددت أم السعد بطرف لسانها

ـ ربنا يحمى ‥ ويكرم عبيده ‥

كفت عن العمل وطوحت بشالها الأسمر الخفيف الى الكتف وقالت

ـ الرجل سند البيت ‥ منذ موت المرحوم والدار انقلب حالها ‥

المسئولية كبيرة يا أختى

ضحكت المرأة ثم نهضت وناولتها حبات من الترمس ‥

ـ أنت قد المسئولية وأكثر

اقتربت المرأة منها وجلست وهى تضغط باكفها على ورك أم السعد

ـ أسمعت ما حدث ؟

•• كان صباح الجمعة نديا ، والحارة تخلو من ناسـها ، والسيد يدور على البيوت ، يقرأ القرآن • يطرق الباب طرقتين ثم يجلس ويتلو الآيات فى صوت جميل ، ونحن كعادتنا ، كل يوم جمعة ، نحرص على التلاوة لتطرد الشياطين ، وتبعد الحسـد ، وتحل البركة •• ولكن الجمعة الفائتة أظهرت السيد على حقيقته •• لا أعرف كيف يفعل حامل القرآن مافعل •• من ينظر اليه يـره صالحا طيبا خاليا من الدنس •• قلت لهم كثيرا •• لاتنخدعوا بالمظهر •• واياكم أن تعطوا عقولكم لرجل غريب لاتعرفونه • حتى أصبح الغريب واحدا من أهل الحارة ، ان تغيب يوما بحثوا عنه ، وان تعسر حمل راحوا يفتشون عنه ، وان ضاع مال ، أو حدثت سرقة أسرعوا اليه ، ليقيم المندل ويكشـف الأمر •• خالطهم الغريب ، حتى دخل بين الرجل وامرأته •• والنسوان قليلات عقل ودين •• اعتقدن فيه • وبتن يستشرنه فى كل شىء — حتى أدق الأسرار عرفها ، وخزنها وأوصد عليهـا الباب لوقت يحتاجهـا فيه ••

ولكن الجمعة الفائتة فضحت أمره وعرته تماما ••

فى هذا اليوم كعادته دخل بيت « أبو اليزيد » •• والبيت غاطس فى منحدر الزقاق ، يقبع فى صمت ، فلا تقوى أذن على اختراق سكونه كأنه مبطن بالأسمنت •• دخل ولم يخرج ، ظل فى البيت ولم يبرحه ليكمل دورته فى تلاوة القرآن ، على البيوت الباقية •• تصور البعض أن مرضا لحقه فمنعه ، وهو فى الحقيقة جالس مع المرأة طيلة النهار حتى فاتته صلاة الجمعة ، وهو الحريص على الذهاب الى الجامع لينظف الحصر ويكنس برحته ، ويتأكد من وصول الماء الى الحنفيات ، بعدأن يكون قد رفعه الى الخزان العلوى •• تخلف عن الصلاة وظل فى البيت •• ماكنا سنعرف الحكاية لولا أن الله قيض طه لكشف الفضيحة ، حين رآها فى غبشة

الغروب ٠٠ تفتح الباب ٠٠ وترمى الماء فى السرداب الضيق المؤدى الى فتحة الزقاق ٠ صادت عيناه وجه المرأة فبدا طليا شملته الطمأنينة وكان قلقا متعبا ٠ الهاجس الذى تملكها طويلا تحققت منه حين جاء طه بالخبر وعيناه تتوهجان فى تشف واضح ٠٠ كيف تصبر امرأة عاما كاملا وهى الصغيرة الندية الملفوفة ، التى تأكلها العيون أكلا ٠٠ وهو المريض الراقد الهامد ٠٠

عملها السيد وكشفه طه ٠٠

* * *

حين أطلت امرأة أبو اليزيد ، من فتحة الباب ورأته ، فتحت الباب ليدخل ، ثم اغلقته ٠ جلس فى مكانه المعهود على فروة الماعز المدبوغة ٠٠ كتف ساقيه ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبدأ يتلو القرآن لم تفته وهو يتلو ، الآهات الصادرة من الداخل ٠٠ فدعا فى سره أن يشفى الله الرجل ويريحه من آلامه ٠٠ حتى اذا وصل الى قوله تعالى « ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ٠ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ٠٠ لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون ٠ سلام قولا من رب رحيم ٠٠ » ٠٠ ما أن وصل الى الآية الأخيرة ، حتى لمحها تخطو فى ردهة البيت سريعا، ووجهها مهموم ، وعيناها زائغتان ٠٠ حدس أن الأمر خطير ، وأنها لاتقوى على مواجهته ، وأن صبرها عليه بات ضعيفا ٠٠ ختم التلاوة ونهض اليها ٠٠

ـ ما الأمر ؟ لقد أخفتنى ٠

وكأنما كانت تنتظر أن يحادثها احد حول المسألة ، ففاضت عيناها بالدموع وشمل جسدها رجفة نفضته ، وراحت يدها تتقلص ،وتعصر الأصابع فى انفعال قوى ٠٠

ـ من حول كامل وهو برقدته هذه ياحبة عينى

ـ الم يذهب الى الطبيب ؟

ـ أخذته ولافائدة ‥ والحالة كما تعلم ، وليس فى قدرتنا التردد على الطبيب كل يوم وآخر ‥

وظل الدمع يتساقط ، وصدرها يعلو ويهبط فى نهنهة لا تقوى على ردعها ‥ قالت فى صوت متقطع ويداها تقبض فى تقلص على ذيل جلبابها ‥

ـ لما طال مرضه خرجت أعمل ‥ فى الحقل · أسقيه وأزرعه

ولا أحد يساعد أحدا فى هذا الزمان ‥ واذا ساعدو طمعوا فيه ‥ ليس هناك من يفعل شيئا لله ‥ والمرض شديد وعلاجه الغذاء ، والحالة معسرة ‥ والأمر لله ‥

رق قلبه حتى كاد يشف ‥ من ير حال غيره ، هان عليه حاله ‥ واستقطر فى داخله حياته كلها ، فوجد أن التخفف من الحياة يعطى الروح قوة ، والجسد متانة ، ويبعد العقل عن الفساد الذى يلاحق الناس كلهم ‥

ـ مم يشتكى !

ـ السل لعنه الله ‥ استحكم فى جسده وحط ولم يبرحه ‥

يقول حلاق الصحة ، أن دواءه الغذاء ، والهواء ، والشمس ولكنه ماعاد يقدر على أن يصلب طوله ‥

امتلأ صدر السيد بانفعال راحم ، وشعر بأن هواء لزجا ينسرب من الداخل يحمل عطنا يزكم الأنف ‥ وسرحت نظراته فى برحة الدار ، واستقرت على باب الحجرة الداخلية ‥ الدار حجرة واحدة ، وبرحة كبيرة ‥ والسلم المؤدى الى السطح معرش بعيدان الحطب · وبدأ العمل ‥

ـ ساعدينى قليلا

صعد درجات السلم ، وخلع العيدان ، وجمع الحطب ، وشاله ووضعه فى مكان بعيد ··

ـ هذا أحسن · يسمح بمرور الهواء ·· وأشعة الشمس · وانتظرته أن يقول شيئا ، ولكن ذهنه كان مشغولا ·· الحجرة الداخلية مظلمة ليس فيها الا طاقة صغيرة ·· تحتمل فى الشتاء ولكن الصيف بحرارته يحيلها الى فرن ··

ـ اكنسى البرحة ورشيها بماء مخلوط بالليزول ··

ـ عندى الليزول ·· ولكن مادخل ذلك فى مرضه !

ـ التجديد مطلوب ، وتغيير المكان فيه راحة · والهواء يتسرب الى البرحة ··

مضت بهمة تكنس المكان ، وعقلها يروح ويجىء ·· أيكون السيد مرسال الله الينا ·· قد يأتى الشفاء معه ·· يضع الله سره فى أضعف خلقه ·· وهو حامل القرآن ·· أنهت عملها ·· ورشت المكان بالماء الممزوج بالليزول · فبدا بهيا يفرح النفس ·· ودخل السيد الى الحجرة · ووقف على بابها وقرأ بصوت مرتعش (ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ·· وظل يردد فى ابتهال حقيقى ·· ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ·· حتى ظنت المرأة أن السيد لبد فى مكانه ويخشى الدخول خوفا من المرض · ·

ودخل · كان الرجل مستلقيا على جنبه فى همود ، وحشرجات الصدر تتعالى ، والسعال لا يكف ·· انحنى عليه فلمح عرقا

يتصبب على جبهته ·· مشى بيده عليه فتنبه الرجل ورفع رأسه في صعوبة وقال :

ـ من أنت ؟

ـ الفقير الى الله ·· السيد

تمتم الرجل فى خفوت ، والتنفس يعيقه عن الكلام

ـ قارىء القرآن فى الجمعة

ـ هذا بفضل الله ··

استسلم الرجل لرقدته ، ووضع رأســـه على يده ، وعيناه تجاهدان النظر

ـ أجاء الأوان ·· أجئت تزورنى لتخبرنا بالأجل ·· مثلما فعلت فى السابق ·· الموت أفضل من حياة كهذه على كل حال ·
ضغط السيد جسد الرجل بكلتا يديه وهو يقول

ـ لايعلم الغيب الا الله ·· مد يديك وساعدنى ··

ارتكزت المرأة على ركبتها وأحاطت زوجها بيديها وأسندت جذعه على صدرها ، ومد السيد يديه ، وشبكهما حول كتفه وابطه ·· وأنهضاه معا ··

ـ الى أين ؟ ·· لا أريد طبيبا ولاحلاقا

وينظر فى ذلة دامعة الى زوجته

ـ أتركينى أموت حتى تتخلصى منى ·· وتستريحى ·

وتبكى المرأة بحدة

ـ لا تقل هذا ··

ـ أتعبتك كثيرا ‥ المرأة تحلم بحياة رخية ، وجاء نصيبك هكذا

ـ أنا راضية بقدر الله ‥ هل اشتكيت يوما ‥

ـ وحدوا الله وصلوا على رسوله ‥

مضى به السيد الى البرحة ، كانت رائحة اليزول تملأ المكان ‥ برائحة قابضة ‥ فسعل الرجل سعلات متواصلة ، وتصبب العرق ‥

ـ الى بطست كبيرة وماء فاتر ‥

حجلت المرأة وأتت بالطست واناء الماء ، أخرج من جيبه زجاجة كبيرة وأفرغ منها فى الماء ، ورجه بيده ‥

ـ الزعفران من روائح الجنة الطيبة ٠ ساعدينى

أجلساه وسط الطست ، وخلعا ملابسه ، وبدأ السيد يدلك جسمه كله ، ويمسح برقة على صدره ‥ وأذنيه وتحت ابطه ٠ وباطن قدمه ، وبين أصابعه ‥ والرجل يلهث من دغدغة الأصابع ، وانهمار الماء ، ورائحة الزعفران ‥ وعندما انتهيا من غسيله ، طلب ثوبا نظيفا ، أحضرته المرأة فالبساه ، وأخذاه الى الحصيرة المتآكلة وأرقده ‥ أبعدت المرأة الطست ووقفت منتظرة ‥

ـ اغلى لبان الذكر ثم اخلطيه بحبات الحلبة ‥ واسرعى ‥

وجلس بجانبه يبتهل الى الله أن يبرأه ويزيل مرضه ، فهو الشافى العافى الذى لايستعصى أمامه داء ‥ وقرأ فى سره بتمتمة هامسة ، قل هو الله أحد ، والمعوذتين ‥ ثلاث مرات ‥ ويمسح جسده ، وصدره بعد كل قراءة ، ويمر على وجهه وساقيه وبطنه ‥ وعلا صوته فى تهدج ‥ اللهم رب الناس ، اذهب الباس

اشف أنت الشافى ، لاشفاء الا شفاءك ، شفاء لايغادر سقما ٠٠ صدقت يارسول الله ٠٠ وعاود مسح الصدر ، وتدليك الجسم ، وترقرقت عيناه بالدموع ، ورفع رأسه الى السماء وبسط كفيه ودعا ٠٠ اسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن يشفيك ، ويعافيك ، اللهم اشف عبدك ، وتهدج الصوت فى نشيج ٠ اللهم اشف عبدك ، اللهم اشف عبدك ، اللهم لاحول ولاقوة الا بك ٠٠ كانت المرأة بجانبه تؤمن على مايقول ، وعيناها تفيضان بالدمع ، وشعرت للحظة خاطفة أن ثمة نسمة خفيفة ، اخترقتها وارعشتها ، وأن السيد موصول بالسماء فى دعائه وعيناه هائمتان كأنما تعلقتا بشىء يقبضهما اليه ٠٠ ظل الوضع ساكنا لايخدشه الا لهاث المريض ، فمدت يدها وربتت على كتف السيد ٠ مسح وجهه ٠٠ وجسده كله ونفث فى كفيه وربت على صدر الرجل ووجهه ٠

ـ اللبان والحلبة ٠

أخرج الزجاجة ، ومزج اللبان بالزعفران ، واسند جذع المريض وانساب اللبان قابضا فى سرسوب صغير الى فم الرجل ٠٠ وحين انتهى من شرب المزيج ٠ أرقده السيد ٠ وغطاه ٠٠ واتجه الى الزوجة ٠

ـ رشى الماء عند الباب ، وعند مفارق الطريق واستعيذى بالله من الشيطان ٠

فتحت الباب ، ورشت عتبة الباب ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ومضت الى مفارق الزقاق لترش الماء ولمحته وهى تدلق الماء وتستعيذ بالله ٠٠ كان طه واقفا فحدجها بنظرة ، ورسم على وجهه بسمة مستفزة ، وحين اقتربت قال لها فى خبث ٠٠

ـ كل هذا الوقت ٠٠ تنعم حامل القرآن بما عجزنا عنه ٠٠

خطفت نفسها ورجعت دون أن تهتم بما يقول ٠٠

ووجدت السيد ، قد جلس جلسة التلاوة وشرع يقرأ سورة يس ٠٠ والجسد المريض ، غاف ، فى نومة طويلة ٠٠

ـ أتعبناك ياسيد ، وحرمنا البيوت من قراءة الجمعة ٠٠

ـ الله يأتى بالشفاء ان شاء الله ٠٠

ولم يغادر السيد الدار حتى استراح المريض ، واطمأن الى أن الصدر يتنفس فى سهولة ٠٠

ونهض مودعا ، والليل يفرش عباءته المعتمة ٠٠ وشاء الله أن يبرأ المريض بعد زمن قصير ٠ ٠عوفى المريض ، ومشت الزوجة فى أرجاء الحارة والزقاق والبلد تتحدث بما رأت حتى خيل للناس انها مجنونة بالسيد

* * *

زغدت المرأة أم السعد فى وركها وقالت :

ـ مالك لاتردين على

تنهدت أم السعد فى عمق وتأفف وقالت :

ـ لا أصدق كلمة واحدة مما تقولين ٠٠

ـ لقد رآهم طه بعينيه ٠٠

ـ فقأ الله عينه هذا النجس ٠٠ ان عينيه على البنت منذ مرض زوجها ٠٠ وكثيرا ماضايقها ٠٠ أتصدقين هذا الفاجر الذى لايفيق من شرب السبرتو ٠٠

لوت المرأة رأسها فى غضب ونهرت أم السعد قائلة ٠٠

ـ تدافعين عنه كأنه واحد من أهلك ٠٠

ـ اننى أدافع عن الحق ٠٠ اللهم استرنا ولاتفضحنا ٠٠ انت ولية والذى يأتى على الولايا لاينجح أبدا ٠٠

لمت المرأة نفسها ، ونهضت وجلست أمـــام عتبة بابها ٠٠ وكومت أم السعد جدائل الخوص فى حجرها واستسلمت للحظـة اغفاءة خفيفة ، أخرجها منها دبيب قادم من ناحية الجامـــع ٠٠ رفعت رأسها ، وحدقت بالنظر ٠٠ كان القادم السيد ، يحمل على ذراعه طفلا صغيرا ، وبجانبه صابحة ٠ ركزت عينيها واندهشت ، وكان الجرو الصغير يتبعهما فى قفز متواصل ٠٠

حين أقترب منها نترت جسدها ووقفت أمامه

ـ السيد ٠٠: الشاى عندى الليلة ٠٠

ـ ليس الآن ٠٠ ألا تسلمين على صابحة ٠٠

لفت أم السعد كفها بذيل جلبابها ومدت يدها الى صابحة ٠ لم يفت صابحة المعنى فقالت :

ـ لست أنجس منكن يانسوان الزقاق ٠٠

قامت المرأة الأخرى وقالت فى غضب ٠٠

ـ ألا تستحى ، أتعودين بعد فعلتك الشنيعة ٠٠

قبض السيد على يد صـــابحة ، وســـار بها فى الزقاق ، والتوت الرءوس كلما مرا على باب مفتوح ، أو لمة من الصغار . أو لمة من النساء يثرثرن ـ غلى الغضب فى صدر صابحة وهى ترى الرؤوس تلتوى ، وتسمع بأذنها صوت البصقة فتمتمت فى حدة ٠

ـ سأريكن يانسوان الحارة ٠٠

اشتدت قبضته عليها وسحبها حتى وصلا الى دارها ٠ فتحت الباب ، وتناولت الطفل ٠٠ ومرق من بين الأرجـــل الجرو وهو يصوصو فى تقطع ٠

ـ أنت الآن فى دارك .. حافظى على نفسك

ـ أتتركنى ؟

ـ آن الأوان لأعيش فى الدار الأخرى ، وأجتمع بالاحباء .

وداعبها وهو يرجع الخطى

ـ ابنى أمانة عندك ، فارعيه جيدا ..

دمعت عيناها وهى تراه يقفل الباب وراءه ، وطـــاف على الذهن فجأة صورة النسوة وهن يقابلنها فى تأفف وضجر ويبدين امتعاضا لرؤيتها ، فشاط القلب غضبا .. وأضمرت فى نفســـها حقدا ، منصبا على تلك الرؤوس الملتوية المتعضة ..



ـ ٧ ـ

كان كل شىء هادئا ، فالجو القائظ أجبر الكل على الاحتماء ببيوتهم ‥ اتقاء لحرارة صيف لاسعة ، انفرد بنفسه فى الحجرة العلوية ، وتخفف من ملابسه ‥ وطلب من خادمته أن ترش المكان بالماء ، فلعله يخفف من قســـوة الحرارة ‥ وحين بدأت ترش الماء وترميه فى أنحاء المكان ، كان قد أراح جسده على السرير ‥

دخلت الخادمة ، وهمت برش المساحة الطينية فى الحجرة ‥ الا أنه أشار اليها أن تكف ‥ فاختلاط الماء بالتراب خلف رائحة مقبضة ٠

ـ ألا تكنسون السطح ‥ ان له رائحة نفاذة ٠

ـ كل يوم نكنسه ‥

ـ أين الست ! ؟

ـ نائمة ..

اشار اليها أن تدعك قدميه .. فترددت ، فضحك

ـ أ أنت تخجلين !

نظرت اليه فى تغاضب وقالت فى عتاب :

ـ ألست واحدة كغيرى من النسوان ؟

وعاوده الضحك وهو يفرد ساقه ..

ـ لولا لسانك لكنت الأفضل ..

هزتها الكلمة ففرحت فى داخلها وتبسمت فى حياء ـ وبدأت أصابعها تروح وتجىء وتضغط فى خفة مدروسة جوانب القدم ، وتفرك الأصابع ، وتلمس الجلد .. حرك ساقه ومد الاخرى فانكشف ، فلوت رأسها وشملها خجل وقالت فى حدة ..

ـ ألا تشترى لك سروالا جديدا ؟

وزم ساقيه وهو يضحك .. وقال فى دعابة ..

ـ انه جديد .. ألم تلاحظيه ..

ولوحت بيدها ، وامتعضت وهى تقول :

ـ انه لايكاد يسترك ..

استدار ، واضطجع على جانبه وهو يردد

ـ أنت واحدة منا .. ايقظينى أذان العصر ..

حملت طست الماء ، وقبل أن تمضى ، دق الباب بعنف ، فاستدار وأحنى جذعه .. عادت وأطلت من الشباك .. فلمحت

الخفير واقفا ومعه بعض الرجال ·· حين لمحها الخفير طلب منها أن توقظ شيخ الخفر وصله الصوت فزام فى ضجر ··

ـ وهل نمت حتى أستيقظ · !

ونهض وأطل الى الخارج ·· فأخبره الخفير أن أمرا خطيرا قد حدث ·· فطأطأ رأسه وقال :

ـ كل شىء عندك خطر ··

ولبس ملابسه وخرج ··

على طول خدمته بالحكومة يذكر أنه لم ينعم بلحظات ماقبل العصر كما ينعم الآخرون من عباد الله · وكأنما حلا للناس أن يتعاركوا فى هذا الوقت بالذات ·· وتدوم مشاحناتهم ·· مضى يلاصقه الخفير ووراءه بعض الرجال ··

ـ ماذا وراءك ؟ ·

ـ عراك بين عائلة علام وعائلة شهاب ··

زمجر فى حدة ، وهو يهرول مسرعا

ـ أليس فى البلد غيرهما ؟

قال الخفير فى استخفاف

ـ أكابر البلد !

ـ سينهون أنفسهم بأيديهم ··

وصل الى ساحة الجامع الكبير فخف اليه الأتباع ··

كانت الساحة غاصة ، ممتلئة حتى الحافة بالرجال والنساء ·· وكان الصراخ عاليا ، والرقاب تختلط بالرقاب ، والأذرع تتطارح

ثم تسقط ·· وكلما علا نبوت ، أو أرتفعت عصا ، تطاير الصوت بالصراخ ··

كانت الساحة كأنها مشطورة نصفين ـ نصف لعائلة علام ، والآخر للأخرى ·· والرجال يرفعون العصى ، ويهجمون ، والآخرون يردون الهجوم بعصى ونبابيت · ويقتحم الصفوف الرجل تلو الرجل · والدماء تنزف ، والرءوس مجروحة ، والسيقان تلتوى بالأجساد ·· ويسقط الرجل ، ويعلو الصوت ·· ولا ترى الا زحاما وأطراف العصى مشرعة أو ساقطة ·· أدرك أن الأمر صعب ، وأن المهمة عويصة · وعدد الخفر لايكفى فض المجزرة ، ولاحتى وجود العمدة ·· أيضطر الى ابلاغ المركز ! ·

شمر عن ساعديه ، وكبس لبدته ، ورفع البندقية وأقتحم الجمع ·· زعق الخفير بصفارته · وتوزع الآخرون حول الساحة ، ومع شيخهم يحاولون دفع الرجال ومنعهم ·· وصلته دفعة قوية هزته ولكنه لم يسقط بفعل الزحام ·· أدار رأسه ليعرف من هو حتى يحاسبه فيما بعد ، فلم يجد ألا امرأة منكوشة الرأس حادة البصر تشير الى الرجال أن يتقدموا وتصيح فى غل ممرور :

ـ الزرع كالولد ·· مات الزرع يموت الولد ·

تفرس فيها مليا فعرفها ·· هى دائما لاتترك عركة الا وهى فى أتونها تلهب رجال العائلة ·· من أتى بها ؟ ·· تتصور أن لها دورا ، ودورها أن تخرب البيوت ، هذه المرأة العانس التى لم يقترب منها رجل ·· فى العام الماضى أشعلت واحدة من المعارك المشهورة ·· كانت عينها من سالم ·· وكان الرجل حاذقا أخذ منها المال ، ولبس ما حلا له ، وطعم أفخر الطعام ، وسهر الليالى الطويلة ·· وهى ترنو اليه تستعجله ، اخوتها يرحبون بالأمر ويتمنون أن

تنزاح من حياتهم ‥ ولكنه خلا بها ‥ ترصدته وهو يمر من أمام الباب ، فمسكت بخناقه ، وادعت أنه أراد بها السوء ‥ واضطر اخوتها أن يجاملوها فضربوا الرجل ، وعرف أقاربه بالخبر فأسرعوا والتحموا فى عركة عجيبة كانت سببها تلك المرأة العانس ‥

زغدها شيخ الخفر فى قوة وقال :

ـ من أتى بك ؟ !

ـ انهم أهلى ‥

مسك بخناقها ، وعلا صوته محتدا ‥

ـ انما تحبين الزحام ‥ يامحرومة من الرجال ‥

ـ ستحاسب على هذا ‥

أشار الى خفير أن يأخذها بعيدا ، ويرميها فى بيت ويقفل عليها الباب ‥

وعاود الرجل ، الزعيق ، والصراخ ‥ والرجال يلتحمون ‥ حتى فكر فى أن يستخدم بندقيته تحذيرا وتخويفا ‥ وانطلق العيار النارى مدويا فى أفق الساحة ‥ مرة ومرتين ‥ وفجأة رمح رجل من عائلة شهاب الى البيت وأحضر بندقيته ، ولمحه الخفير ، جرى وراءه وقبض عليه بقوة ، والرجل يحاول أن يفلت ولكن قبضة الخفير ماتت عليه ‥

وظل الخفير يردد فى لهاث سريع ‥

ـ انها بندقية شيخ الخفر ‥

ـ بهذا ‥ ستجعلهم ينتصرون علينا ‥

ـ بندقية الحكومة ·· وهذا يعرضك للسجن ··

ولم يجد ما قام به شيخ الخفر ··

ووصل العمدة على جواده المعروف واقتحم الساحة ·· وظل يرفع صوته مطالبا الناس بالكف عن العراك ·· وكل واحد سيأخذ حقه ، وطلب من الخفراء أن يقفوا صفا واحدا بين الفريقين ·· وذاب العمدة وشيخ الخفر والخفراء وبعض الرجال أتباعهم ·· ذابوا جميعا ·· ولازال الصراخ زاعقا ·· وخبطات العصى تتوالى ··

وفى اللحظة التى وصل فيها الأمر الى حد العجز تماما ·· جاء رامحا ، مهيب الطلعة ، اقتحم الصفوف ، وتغيرت ملامحه ، واحتد فوق الوجه سحنة الغضب ، وتقدم سريعا الى رجل بدا أنه احد كبار العائلة وزمه زمة قوية ، حكى بعدها أنه ظل أياما طويلة يعالج رضوضا بأضلعه ····

ومضى يخترق الصفوف حتى وصل الى العمدة ، فأنزله وركب جواده ·· واقتحم به الصفوف فى حركة عنيفة ، لا يبالى بما يحدثه الجواد · وكان الجواد تحته يئن من شدته ، وعنفوانه ·· حتى استطاع أن يحدث مساحة صغيرة بين المتنازعين ·· وظل يرفع يده ، مشيرا أن يكفوا ، وأن يذكروا الله ·

وتنبه اليه القوم ، فهدأت الحركة قليلا ، لكن التماسك لايزال ، وخبطات العصى تفلت عبر المساحة الضيقة · وكلما رأى أحدا يفعل ذلك ، جرى نحوه بالجواد فيلبد فى جماعته ·· حتى وسعت المسافة قليلا قليلا ·· وبدأ العمدة واقفا فى وسطها ومعه شيخ الخفر ·· وخفت الحركة ، وهدأ الرجال ·· الا من أصوات نسوة مبعثرة تكيل السباب والشتم ··

ـ كأنكم أعداء ولستم رجال بلد واحد .

وقف الجواد ساكنا بعبء مافعل ، وبمعاناة مايحمل

ـ أمامكم العمدة .. فاذهبوا الى الدوار ، وحلوا مشكلاتكم .

برز من الجانب الآخر رجل حاد البصر مزمجرا

ـ لا نذهب اليه أبدا

ـ ليس كلام رجل يحب أن ينتهى الأمر .

ـ الحقيقة أن العمدة من عائلة علام وهى التى قامت بالعدوان .. واطمأن الى أن الرجال نفدت طاقتهم فتابع قائلا :

ـ انه عمدة البلد .. وحاكم الجميع ..

رفعت امرأة من الخلف صوتها وقالت :

ـ انه واحد منهم ـ عائلته هى حزبه .. أيعقل أن يعدل . ؟

رمقها من على صهوة الجواد الساكن ..

ـ ليس فى الأمر ظلم مادام يتضح ..

صرخ رجل فى حدة وعينه يتطاير الشرر منها ..

ـ تم اقتلاع الزرع فى عز الظهر ..

ـ سيعوضك العمدة ..

ـ انه لايعوض أحدا ..

نظر السيد الى العمدة وقال له هامسا

ـ ماذا ترى ؟

ردد سريعا كأنه ينفض عن كاهله عبئا ثقيلا :

ـ تصـــرف ..

تجول بجواد العمدة .. فى الساحة .. وهو ينظر هنـا ، وهناك .. وكلما كان يتجه الى ناحية تتعلق به العيون .. حتى بدا الأمر غريبا ، ولاح على المكان شيء أشبه بالســـحر .. وقال فى مودة ..

ـ اتسمعون رأيى ؟

فى صوت يكاد يكون واحدا ، قالوا : ـ نعم ..

ـ اذن فليأت الكبار منكم هذه الليلة الى دارى ..

نظر شيخ الخفر الى العمدة وأسر فى اذنه :

ـ انه يتدخل فى عملنا ..

ـ أيعجبك الأمر .. دعه يتصرف ..

ظل منتظرا الجواب ثم عاود الطلب ..

وتقدم كبير من كبراء عائلة علام ، وبرز أحد رءوس عائلة شهاب وتواجها بالقرب من السيد ..

ـ من أجلك فقط سنأتى الى دارك ..

وابتسم واطمأن قلبه ، وأحس بنفسه مزهوا براحة نفسية نادرة ..

ـ فليكرمكما الله .. اتفقنا ..

وقبل ان ينصرف الجميع نادى على حسن ، ويوســـف .. وترجل عن جواده ..

ـ لم يخب ظنى فيكم .. انكم رجال بحق .. الشيطان هو

الوحيد الذى يتباهى بالشر ، وهو الآن فرحان لأنه يراكم الآن أعداء •• أتحبون أن تكونوا من أتباع الشيطان ـ أعوذ بالله ـ

وتوجه الى يوسف فى نظرة ترشح بالود ، وتتمنى ألا يخيب ظنه فيه

ـ يايوسف •• أنت تحمل اسما عزيزا •• كله صبر ورحمة •• عانق أخاك حسن ان كان لى عندك خاطر ••

وأجفل يوسف ورمقه بحدة وقال

ـ أعانق من قلع الزرع وأفسد الأرض ••

ـ انس سوءة أخيك ••

وزعق حسن عاليا •• وقال فى غضب ••

ـ ليس بى سوءة •• والأمر كله مفتعل ••

ـ أنت غاضب ياحسن ـ صارم النظـــرة ، ولكن داخلك طيب ••

لنرجىء العناق الى الليلة فى داركم •• دار السيد ••

وانسحب الجميع وفى القلوب دمدمات لم تنته بعد •• وفى العيون اتقاد بريق غاضب لم يتلاش •• وأخذ العمدة جواده •• ومضى يتبعه الخفراء ••

ـ ياعمدة يجب ألا نسكت على هذا ••

ـ تصور نفسه عمدة ••

ـ الناس أطاعوه ولم يسمعوا لك ••

تمتم العمدة فى ضعف وحرص أيضا

ـ ولكنه تصرف •• لايجب أن يعرف المركز عنا أننا نعجز أحيانا عن اشاعة الأمن ••

- ٨ -

اقترب المساء ، واقتربت عودة الرجال من أعمالهم فى الحقول · فالحقول الممتلئة بمساحات القمح والبرسيم ، تحتاج الى الأيادى الكثيرة ، فموسم الحصاد قد قرب والتجهيزات له تستغرق اهتماما واسعا ، ونباتات البرسيم الخضراء هى العلف المتبقى للبهائم ويجب الحرص عليها ، أما النباتات الجافة فسيأتى وقت حصدها للحصول على البذور ·

ويقترب المساء بغبشته ، وسرعان ماتمتلىء البلد بحياة جديدة · تدب الحياة بدبيب الأقدام ، وخوار البقر ، وثغاء الخراف ·· وصياح الأطفال ·· وتستقبل البيوت هذه الحياة ، فتبدأ النسوة فى عملهن لاعداد وجبة العشاء الرئيسية ، وسرعان ماتتصاعد ألسنة النيران ، ويتصاعد الدخان ·· ثم تجتمع الأسرة حول الطبلية ويتناولون الطعام ·· ثم يحتسون الشاى الأسود ·· ويحمدون الله على رزقه ونعمه ·· وكان السيد فى هذه اللحظة

يجهز داره لاجتماع الرجال ·· وكان يساعده خادم شيخ الخفر ، وصابحة ·· وبدأت صابحة ، تعد الموقد الغازى الكبير ، تملأه بالجاز ثم تنظف زجاجته ، وتدلق على رأسه الجاز ، وتشعله ·· ويتوهج النور فتستحى الظلمة وتخف ·· وتمسك بطست الماء وترشه فوق الفناء الخارجي ، وفوق البهو ، وعكست قطرات الماء ضوء الموقد فتألق المكان بالضوء ·· ثم تنسحب الى الداخل حيث الممر الضيق خلف الحجرة ·· وتشعل وابور الغاز ·· وتغسل الابريق والاكواب ، وتجهز السكر ، والقهوة ، والقرفة ، والزنجبيل ·· وحبات التمر الابريمى ·· لقد استعدت تماما للقاء الرجال ·· فهى التى ستقوم على الخدمة ، وهى نفسها ستبدو أمامهم كأنها ربة البيت ، والجميع يشربون من يدها المشروب الحراق بلسعة الزنجبيل ·· ترى ماذا يقولون عنها ! ·· وأحست باستعلاء وزهو حقيقيين ··

أما الخادم فقد نهض بعبء تنظيف الحصر ، وتنظيم الوسائد ووضع عيدان الريحان ذى الرائحة الطيبة ، فى الأركان ، وعلى جوانب المصطبة الدائرية ·· قال الخادم وهو يفرش الحصيرة المطرزة بعيدان السمر الحمراء ··

ـ اننى أثق فى مقدرتك يا السيد ·· وأنا متأكد أنك على قدر مادعوت اليه ··

يلتقط السيد عود ريحان طرى ويتشممه بلذة :

ـ اللهم خضل راسنا برياحين الجنة ··

وتوجه الى الخادم فى استبشار وتمتم فى رقة :

ـ انهم رجال يسمعون كلام الله ويرتضون حكم الله ··

ـ ولكن العداوة بعيدة ومتأصلة في النفوس ·

وامتلأ قلب السيد بفرح غامر وهو يقرأ فى عين الخادم قلقا باديا ..

ـ يا أخى لاتقلق ، فروح الله معنا ـ ونحن لانريد الا الخير ما استطعنا ..

وانسحب الى الخارج . كان الليل رقراقا ، والنسيم يهب هبات رخية خفيفة .. وشجرة الزيتون ، والنخلة الطويلة ـ اتشحتا بدكنة خفيفة ، وواصلت أغصانها ـ فى اهتزاز ـ رفاتها فى خفة . ودعا الله فى سره أن يصلح الحال ويبرىء الجروح ويهدى النفوس ..

وقف الخادم بجانبه ، وهو لايزال يشعر بقلق على حين وقفت صابحة فى الداخل وهى تبتهل الى الله ـ أن يساعد السيد ويؤازره . وحدثت نفسها فى بشر داخلى واطمئنان حقيقى بأن الله أرسل السيد الى البلد ليطرد منها الشرور ، ويريح النفوس ويجمع الشمل ساعده يارب ..

على مساحات الضوء بدأ الرجال يظهرون واحدا بعد الآخر .. عائلة شهاب ، وكبار عائلة علام ، ورجال العائلات الأخرى ـ كان مسراهم الى الدار يبعث فيه عزة ، ويرفعه مكانة عالية ، فحمد الله وصلى على رسوله ـ وتمتم الى الخادم ..

ـ لاتقلق ياعلى فالله معنا ..

وامتلأت الدار بالرجال ، وصحب السيد العمدة وشيخ الخفر ومضى بهما الى المصطبة فى صدر الحجرة . تصدر العمدة المكان وبجانبه السيد وشيخ الخفر .. وامتدت الأيادى تتشمم الريحان .. ويتكىء العمدة على مخدة صغيرة ، ويريح من حوله أيديهم وأرجلهم ، ويتحللون من صمت صاحبهم .

أخرج السيد مسبحته الطويلة ونهض ومد راسـه من باب الحجرة ونادى

ـ صابحة ··

وأطلت صابحة بوجهها وهى تنتظر أمره ·

ـ اصنعى القهوة · جزاك الله خيرا

كان السيد يتصدر الحجرة مع العمدة ـ مال برأسه يمينا وشمالا ورمى الحاضرين بنظرة متواصلة تحمل اطمئنانا وثباتا ·· وقال فى بطء ··

ـ الحمد لله الذى خلق عبده ليعبده ·· وهيأ له الكون كله لخدمته ·· من سماء وأرض وماء ـ ان نعم الله على عباده لاتعد ولاتحصى وقرب الانسان من ربه يجعله صافى النفس ، طاهـر القلب ، نقى السريرة ·· ولكن الشيطان لعنه الله يسرى فى ابن آدم سريان الدم ·· فتتبـدل النفوس ·· أعاذنا الله منه ، قولوا آمين ·

وفى صوت واحد ردد الحاضرون فى عمق

ـ آمين ··

رقص قلب صابحة ، وهى تسمع الصـوت العالى ورفعت رأسها الى السماء وتبتلت :

ـ اللهم اجعل سهمه عاليا دوما

وحرك الخادم الواقف بجوار الباب يديه ، ومسح على صدره مطمئنا ··

أمال أحد الحاضرين رأسه الى من بجواره وهمس

ـ الكلام كعسل النحل ·· ولكن النفوس متغيرة ··

ـ جئنا حتى لا يقال أننا امتنعنا ·· ولكن هل القعدة هذه تردم الشروخ ··

واصل السيد حديثه الى القوم وهو يتناول مسبحته فى حنان

ـ كنتم كراما معى اليوم ، فليتواصل كرمكم ان شاء الله ·· ولتعلموا أن الدنيا زائلة ولايبقى الا وجهه سبحانه ·· وخير الناس من سمح وعفا ·· وخيركم من يبدأ بالتحية والسلام ··

نظر الى العمدة فوجده يتابعه ويحدقه ببصره ··

ـ كل ابن آدم أيها الأخوة خطاء ·· وخير الخطائين التوابون ·· وماحدث اليوم انما هو لعبة شيطان ·· يغرينا بالشر ·· ثم نندم ·· ولاينفع الندم

دخلت صابحة ، وفى يدها فناجين القهوة ، يتصاعد دخانها فيحمل رائحة طيبة ·· حين قدمت الفنجان الى شيخ الخفر حدجها بحدة وهمس ·

ـ لم يبق الا أنت ·· من جاء بك ؟

ـ لا تنس أنها دارى ··

لم يفت العمدة وهو يرى شيخ الخفر ، لمعة الغضب فى عين تابعه وقال فى عتاب ·

ـ ليس وقته !

ـ ولكنها تحشر نفسها معه فى كل شىء

ضحك العمدة وقال :

ـ أنت زعلان لأن الدار لم تعد تفتح بابها لك ·· وحرمت جلسات الشيشة ومتعة السهر ··

أشار الى السيد وقال :

ـ ولكنه مفتوح لغيرى ··

ـ ان لنا ولايا ·· سترنا الله ··

أدار السيد جسده ، وواجه العمدة وقال :

ـ ليس لى أن أبدأ الموضوع والعمدة موجود ·· انه من اختصاصه ··

علت همهمة من الحاضرين بمجرد سماع السيد ، فبـــادر العمدة قائلا :

ـ الناس لايحبون غالبا أن يستمعوا الى رجــل الأمن ·· بالرغم من أننا نعمل لخدمتهم ··

نهض شيخ الخفر وواجه الحاضرين قائلا :

ـ ان هيبة العمدة من هيبة الحكومة

انتفض السيد ، وكأنه انتبه الى خطورة مايقول الرجل ·· انه سيدخلنا فى متاهة ، والتلويح بالكرباج والحجز والترحيل الى المركز ليس وقت الحديث فيه ـ الرجل يرش الجاز فى رءوس القوم لتشتعل ··

قال السيد فى تؤدة :

ـ ان قوة العمدة من قوة الناس ، ولا يستقيم الأمر بدون حاكم ، انه منكم ·· وماذا يفعل العمدة فى نفوس البشر ·· دواء النفوس عند الله ··

أحس العمدة بزهو ، وشعر بأن السيد يسير فى حديثه حسبما يود وعلى الناس أن يسمعوا له ·· وتوقف عن الحديث ملتقطا أنفاسه ثم قال :

ـ صلوا على رسول الله ..

علا صوت يوسف وقال مواجها كلامه الى العمدة .

ـ مادام كذلك .. فليرنا ماذا سيفعل ؟

استقام جذع العمدة ، ووضع المخدة على حجره وقال :

ـ الموضوع هو قلع الزرع . والسؤال .. ما الذى جعلك تقول أن حسن هو الذى أتلف الزرع .. مع أنه سيد عائلته ..

ـ الدليل موجود .. والفاعل من عائلته .. وهو مسئول عنه ..

هب شيخ الخفر زاعقا :

ـ اذن .. هات الدليل ..

تدخل السيد وقال :

ـ القاء التهمة على برىء ترتج له السموات .. ودعوة المظلوم تفتح لها الأبواب . ومادمنا بدأنا قعدتنا بحمد الله والصلاة على نبيه ، فلنهدأ .. ولتحرسنا عين الله .. والغضب يا يوسف لا يعيد زرعا ميتا ولكنه يقلب النفوس ويغيرها ..

ـ من أجلك أتينا فقط ..

ـ على رأسى ..

ـ اذن ما الدليل . !

قام يوسف وقال كلاما كثيرا ، أخبر الحاضرين أن ابراهيم جاءه بعد الظهر وأخبره أن سالما يجوس فى حقل الأذرة ، ويقتلع العيدان الخضراء .. ويرمى بها ، وينزع الكيزان ولم تنضج بعد ويرمى بها .. ويدوسها فى عز الظهر .. والناس هاجعون .. فى وضح الشمس المصلوبة يفعل فعلته ، دون أن يراعى حق أحد ..

وتوقف وحدج العمدة بنظرة نارية ··

ـ ألا ترى تحديا أكبر من ذلك ·!

قال العمدة وهو يطوح بعود الريحان :

ـ أين سالم !

تلفتت الرءوس باحثة عن سالم ·· فلم يجدوه ·· نهض حسن وقال ··

ـ لعلمك ياعمدة أن سالما الذى يتحدث عنه مسافر من أسبوع

ـ الى أين سافر ؟

ـ الى ·· طنطا

ـ لم ؟

ـ يبحث عن عمل ··

نتر شيخ الخفر جسده وقال :

ـ كلهم يسافرون الى البنادر ·· ويتركون الأرض ·· من يفلح الأرض اذن · ؟

غضب العمدة ، واتجه الى شيخ الخفر ناهرا اياه

ـ أترى أن هذا وقته !!

صرخ رجل فى وجهه وقال :

ـ قيدوا حرية الناس ·· ·الناس أحرار يا أخى ·

رفع السيد كفه وفرش أصابعه ·· وتمتم فى طمأنينة

ـ بسم الله الرحمن الرحيم · قل أعوذ برب الناس · ملك الناس اله الناس من شر الوسواس ··

تصور شيخ الخفر أن السيد يقصده فاتكأ على مخدة ، وشاط داخله غضبا ·· وتابع السيد حديثه ·· ولذعات القهوة لما تتلاش من الأفواه بعد ··

ـ اذن هاتوا ابراهيم ·· لنعرف منه الحكاية ·

مثل ابراهيم أمام العمدة والسـيد ، نبهه السـيد الى أن الشهادة حق ·· وأن من يمتنع عن الشهادة آثم قلبه ، لأنه يضيع حقوق العباد ·· وأن جهنم مصير شاهد الزور ـ والرسول صلوات الله عليه ·· حذرنا من شهادة الزور وألح عليها ··

فجأة خرج صوت من الحاضرين يحمل مطلبا

ـ اذكر الحديث ياسيد ··

رد عليه واحد فى عصبية ، أقلقت الخادم ، فاستدار بجسده كلية تجاهه ·· يعلم أنه أحد الذين يرتادون مجلس السيد ويسمعون له ·· بل وقد يصطفيه السيد ببعض الأسـرار ، الا أن انفعالـه يغلبه ·

ـ أتمتحن السيد فيما يقول ··

لوح السيد بيده طالبا تابعه ومريده أن يكـف ·· فالوقوف على الحافة يشى بخطر ، وهو للآن لم يحل المعضلة ، ولم يستل الكراهية من القلوب ··

ـ مع السائل كل الحق ·· أن ابراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يخبره بكيفية الخلق بعد الموت وهو المؤمن به الحامل لرسالته ·

قاطعه واحد من الجالسين :

ـ ولكن ليطمئن قلبى ..

قال السيد مواجها صاحب السؤال :

ـ أما عن شهادة الزور فقد ورد عن أبى بكر رضوان الله عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قلنا بلى يارسول الله . قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين . وكان متكئا فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته يسكت ..

تقبل الحاضرون كلام السيد بهمهمة مريحة ، وتمتموا بالصلاة على النبى ..

واستدار السيد الى ابراهيم وقال له .

ـ أرأيت كيف أن شهادة الزور من أكبر الكبائر .. ران سكون على الرجل ، ولاح منه اضطراب ، وقال فى رجفة :

ـ ليؤمنى العمدة أولا ..

اعتدل العمدة فى جلسته وقال :

ـ لك الأمان .. تكلم وأرحنا ..

حين شاهد ابراهيم وهو فى طريقه ... وراء حمارته المحملة بروث البهائم لتسميد الأرض ... الحقل وقد تكسرت عيدانه ، وانطرحت حباته وكيزانه وأوراقه المتدلية فى حزن الموت .. سارع الى حارة شهاب وفتح الباب فى لهفة .. رأته خضرة وهو يقتحم الدار بلا استئذان .. فخبطت صدرها بقوة وقالت :

ـ ان وراءك شرا

أمهلته حتى يخف اضطرابه ، واستعجلته .

ـ الفدان القبلى ، قلع زرعه ، واتلفت زراعته

لاحظ ابراهيم أن خضرة لم تهتم فى البداية ، الا أنها رفعت صوتها فى حدة وقالت

ـ أرأيت أحدا

ـ لم أر أحدا فى الحقيقة ٠٠ الكذب خيبة ٠٠

ـ لابد أنه ٠٠ الى فعلها ٠٠

ـ من يا خضرة ٠٠ ؟

ـ سالم ٠٠ ليس غيره ٠٠

ـ ولكننى لم أر أحدا ٠

لاصقته قليلا ، ومشت أصابعها على صدره ، وعدلت من جيب جلبابه ، وربتت على كتفه ٠٠ وقالت فى نعومة وهى تضغط على صدره ٠

ـ اذا سألك أحد فقل انه سالم ٠٠

ـ ولكننى !٠

وضعت يدها على فمه فأسكتته وواصلت فى غل :

ـ سأحرقه مثلما حرق قلبى ٠٠

بهت ابراهيم وهو يراها فى حقدها تلصق التهمة على واحد لم يفعلها ٠٠ فتأفف من الأمر الا انها أسرعت ، ووضعت يدها فى جيبها وأخرجت جنيها كاملا وأعطته له ٠٠

تردد فى البداية ، ثم قبله تحت الحاحها ٠٠

لمح ابراهيم فى عينيها ألقا متوهجا يكاد يشيط من سخونته ٠ وتساءل

ـ اذن من فعلها ياخضرة ؟

اسندت وسطها بكوعيها وقالت :

ـ أنا ٠

٠٠ واستدار ابراهيم الى السيد ، والى العمدة والى الحاضرين ٠٠ وظل واقفا ينتظر ماذا يفعلون ٠٠ لقد قال الصدق ٠٠ وأجره على الله ٠٠ ولايمكن أن يخالف تعاليم الرسول ولو كان فيه قطع الرزق ٠٠

ضحك السيد وقال للجميع :

ـ أرأيتم من الفاعل الحقيقى !!

ضحك العمدة ، عميقا ، فلقد زال هم كبير من على صدره ٠٠ وقال وأسنانه المفلوجة تعكس ضوء الموقد ٠

ـ وشهد شاهد من أهلها ٠

علق شيخ الخفر وقد مسك بندقيته وخفف من ضغط لبدته ٠٠

ـ زوجوها وأريحونا ٠٠

وصمت قليلا وقال :

ـ مثلما فعل السيد مع صابحة ٠٠

ضايق السيد كلام الرجل ، ولكنــه لم يـــرد عليه ٠٠ فالوقت ليس مناسبا لتأديبه ٠٠ وتحرك العمدة فى قعدته ، وهو ينحى الفنجان ويقرب الريحان من أنفه

ـ ومع ذلك فأنا قادر على التعويض ان طلبتم

ـ نحن لانقبل العوض ٠٠

وقف فتحى وهو يشير الى السيد وعيونه عالقة به ، تستجدى الرضا ، وتستحث فيه قوة كامنة ، تعطف على الضعفاء والفقراء ٠٠

ـ ماداموا لايقبلون العــوض ٠٠ فعلى حضـــرة العمدة أن يعوضنى أنا ٠٠

كان فتحى فقيرا ، وليس فى الفقر عيب ، يعمـل أجيرا عند الناس ، يزرع ، يسقى ، يسمد ، دون أن يشعر بمهانة ٠٠ فالعمل عزة ٠٠ ولكنه تطلع يوما الى أن يكون أحد المالكين فى البلد ٠٠ أن يكون له قطعة أرض ، يرويها بعرقه ، ويرشها بماء عينيه ، ويسهر لترتاح حتى تلد النبات والكلأ والثمر ٠٠ هــى عمره وأملـــه ٠٠ ووجدها بجوار أرض العمدة الشرقية ٠٠وجدها خرابا بلقعا ٠٠ فبدأ يغمرها بالماء ، ويقلب تربتها ، ويغذيها بسماد البيوت والحظائر ٠ كم سهر ، وتعب ، وقدم لها كل ماتحب ، وكانت حفيه به ، فمـــا احتاجت الا الى السماد والماء ٠ ولاح النبات البرسيمى يطل فى فلقات صغيرة ، تشرق بأمل ، وتوحى بمستقبل طيب له ٠٠ الأرض وأنا ٠٠ فلقتان فى جراب واحد ٠٠

ـ والآن ياسيد بعد أن صلحت الأرض ، وعالجتها من العقم الذى دام طويلا ٠٠ حتى خصبت ، وحملت وأوشكت على الولادة ٠٠ يأتى حضرة العمدة ويريدها لنفسه ٠٠

أهذا عدل ؟

تنفس السيد بعمق ، وراح ذهنه يرسم صورة جديدة لموقف جديد ٠٠ يتمنى أن ينتهى لصالح فتحى ، فالرجل فعل مايجب أن يفعل ٠٠ وتوجه الى العمدة وقال :

ـ العمدة عادل ، وكريم أيضا ٠٠ ولن يكسر بخاطر الرجل ٠

ـ ولكن الأرض أرضى أنا ٠٠

ويقول السيد فى اطمئنان قلبى وعيناه تشعان بحنان آسر

ـ الأرض لمن يفلحها ياعمدة .. أوصانا بذلك رسول الله ..

أسرع فتحى قائلا فى استجداء :

ـ لقد أحييتها ، ثم زرعتها .. لقد قمت بفعلين كبيرين ..

أمال شيخ الخفر رأسه الى أذن العمدة وهمس

ـ لم يبق الا أن تفرط فى الأرض .. اياك ياعمدة ، ستجعل من السيد لو وافقت سيد البلد بحق ..

نهض العمدة ، واقترب من السيد الذى كان لايزال واقفا ورمق فتحى وقال :

ـ حلال عليك

وعلا ضجيج الحاضرين ، فرحـــا ، وســـرورا .. وعلتهم الابتسامات ، وبدأ الحاضرون ينصرفون واحدا بعد الآخر . حتى اذا لمح يوسف وحسن احتجزهما وقال :

ـ وعدتمانى بالعناق .. فهل تفيان بالوعد ؟

نظر كل منهما للآخر . وانفردت الأذرعة ، ولاصق الصـــدر الصدر ، والخد الخد والسيد يقول فى فرح : دامت المحبة والمسرة دامت المحبة والمسرة ..

حين شيع آخر الحاضرين على عتبه الباب ، التفت الى الخادم والى صابحة ووضع يديه على كتفيهما وأمعن النظر فيهما وقال :

ـ الحمد لله

وشمل المكان سكون وادع ، وتحركت أوراق الزيتون ، وسبائك التمر ، وتلاعب نسيم رقيق بالموقد .. وخيم الصمت كاملا .

- ٩ -

٠٠ حظى السيد باحترام كبير من البلد ، أعيانها وفقرائها ، كما سارت شهرته تصحبها الهيبة الى البلاد المجاورة ٠٠ وكان كلما يمر بحارة أو زقاق بمشيته المتأنية ، وخبطات ساقيه المعفيتين ، ورائحة الليمون تسبقه ، كان الكل يقف له احتراما ، وكانت النسوة تغطين وجوههن تبجيلا للرجل ٠٠ والصغار يقفون مبهورين بمشـــاهدته ، والرجال يتسابقون فى الترحيب به ، ودعوته الى أن يتفضل فيتناول شيئا لتحل البركة ٠٠ ولقد أضفت لحيته على الوجه وســـامة ، فزادته تأثيرا فى النفوس ، كما كانت عمامته الخضراء تشد أنظار الناس وتستميلهم ، حتى طفق البعض يرخى اللحى ويرتدى اللون الأخضر ٠

وفى الأمسيات الصيفية كانت دارد محط رحال الناس ، كانوا يذهبون ليستمعوا الى حديثه الرطب ، وتراتيله النبيلة ـ ويشاركوا فى اقامة الذكر والانشاد ، مهللين ومكبرين ، حتى كان الصـــوت

يتنامى الى البعيد في ايقاع منسجم يحمل أمنا نفسيا وطمأنينة قلبية ٠

وتحولت داره الى ملاذ يلوذ به الضعفاء ذوو الحاجة ، والنساء اللائى يبحثن عن طريقة للانجاب أو وسيلة للحفاظ على الزوج من أعين النسوة الأخريات ، والرجال الذين يداهمهم مرض ، أو خطر ، أو مشكلة ، يستشيرونه ٠٠ حتى العمدة نفسه كان يحرص أن يذهب اليه ليلة الجمعة ليأتنس به ، ويتحاكى معه حول أحوال النفس والقلب والبدن ٠٠ وأحوال البلدة أيضا ٠

وكان السيد يفرد ذراعيه مرحبا ، يربت على القلوب المرتجفة ، والأبدان العليلة ، والأنفس المريضة ، وكان يؤدى عمله ، بثقة تامة ، مقتنعا بأن القرب وصال ، وأن الدواء فى القرب والمجاهدة ، وأن السيطرة على النفوس تحتاج الى تغلغل مدرب ولسان مؤثر ٠٠ وأصبحت داره مطرزة بأنواع من المفروشات الجميلة ٠ كانت تأتيه هبات من الرجال والنساء ٠٠ هذا المقعد المستطيل الذى يجلس عليه مساء أمام الدار ، صنعه له النجار حين فك علته ، وكسته امرأته بهمة حين أراحها من علة الزوج فعادت اليها البهجة والحيوية ٠٠ وهذا « الكليم » الجميل المنسوج باتقان هدية شيخ الخفر بعدما استكن وهدأ ، ولزم داره وابتعد عن جلساته المعيبة ٠٠ أما تلك العصى المعقوفة الأبنوسية فهى بعض مما أتى به الرجال من البلاد المجاورة ٠٠ وكانت ألوانها مختلفة والبعض مرصع بالعاج ٠٠ وكان حين يفتح المندل للارشاد عن سرقة للبهائم ٠٠ يبتهج القوم بما يحدث ، ويدخل الى القلوب مباشرة حب السيد ، وهم يرون المسروق ظاهرا بعد اختفاء ٠٠ فكانت الألبان والسمن تتوالى على الدار حتى لا يعرف كيف يتصرف بها ٠٠ فيدعو صابحة لتوزعها على المحتاجين ٠٠ وكانت الذبائح تذبح فى المواسم ،

ويجتمع الناس فى برحة الدار يأكلون اللحم والأرز ويشـــربون القهوة المخلوطة بالزنجبيل ··

وخص نفسه بحجرة صغيرة ، يعتكف فيها أياما وليالى ، فلا يدخل اليه الا خادم شيخ الخفر يسرد عليه الأخبار ، ويقدم له الطعام ·· ويتلقى منه الاشارات ·· وكان الناس ينتظرون خروجه بقلق متزايد ·· فلابد أنه سيخرج بجديد الا أنه فيما عدا الاعتكاف فانه يستقبل أتباعه ، وأصحاب الحاجة · فيرقى من يستحق الرقية ، ويكتب حجابا لمن يحتاجه ، ويسقى البعض مشروبه المفضل ·· القرفة بالزعفران ··

وكان يرى أن عمله هذا يأتى على هامش الفعل الحقيقى ، وهو الأذكار ، وقضاء الحاجة والوقوف على أحوال البلد ، والتواجد مع الناس دوما · وطمأنة القلوب ·

الا أنه يحمل للمسبحة الطويلة اعتزازا خاصا ، فقد كانت من خشب الصندل مزينة بشـــراشيب ذات لون أخضر مكتنز ·· ينبثق منها رائحة ترطب الحس ، وتهدىء الروع · ولقد حصل عليها من تابع له يعمل فى جامع السيد البدوى بطنطا ·· وكان يتفاءل بها ، ويداوم على التسمك بها لحظة الاعتكاف ·· أو يعلقها فى جراب أخضر على الحائط ·· حين ينهى اعتكافه ويخرج الى الناس ·· ألا يكفى أن صاحبها يعمل فى جامع السيد البدوى ·· وأنا السيد ·· تشابهت الأسماء ، ولعل الطريق لا يلتوى به ·· فيسير على درب الكبار من أصحاب الخطوة ، وأولياء الله ··

* * *

جلس عصر الخميس على مقعده الخشبى ، المحشو بقطن ، والمكسو بقماش مزين بالأخضر ·· شجرة الزيتون أمامه ، والنخلة

سامقة فى العلو ، وعيدان الريحان المزروعة تهب منها رائحة تنعش النفس والفؤاد ·· وهو يمسك بفنجان القهوة يرتشف منه فى لذة ·· ويستحلب طعم الزعفران ·· وعيناه تحطان على ذؤابات الشجر فى البعيد عند التقائها بالأفق ·· وحين سحب عينيه شاهد خادم شيخ الخفر قادما · فنهض وسلم عليه وأجلسه بجانبه ·· وطلب له القهوة · جلس فى هدوء يتأمل مسبحة السيد وحباتها تتوالى ·· وران صمت ما ، وكان السيد يردد الأدعية ، ويختم دعاءه بقوله : اللهم امسك علينا اللسان ، وقنا شر زلاته ما خفى منها وما بطن ، واستر عوراتنا ، وأكرمنا ولا تهنا ·· ببركة رسولك المصطفى صلى الله عليه وسلم ·

ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ··

كوم المسبحة ووضعها فى جيبه ، وتوجه الى الرجل وقال مبتسما :

ـ ما وراءك ؟

وضع الرجل فنجانه ، وتملى وجه السيد ونطق فى عجلة

ـ ألم تسمع ما يقال عن الكنز ؟

تعجب السيد وبدت ملامح الدهشة تغزوه ·

ـ أى كنز ؟

ـ كيف لم يصلك ؟

قال السيد وهو يحدق فى تابعه ويتأمله :

ـ قال على كرم الله وجهه ·· لا تعرف الحق بالرجال ، اعرف الحق أولا تعرف أهله ·· قل لى اذن ما الكنز أولا ··

ـ أشاع البعض انه فى طريق المقابر عند بداية ضريح الشيخ

بطول خمسين ذراعا ، يوجد كنز تحت الأرض ٠٠ كنز من الذهب الخالص ٠

ردد السيد فى تهويمة منفعلة وقال :

ـ أعرف الحق أولا ٠٠ ان آلام الناس تبحث لها عن مخرج ٠٠ والناس يلهونهم بهذا الكلام ٠٠

ـ أى ناس تقصد ؟

اعتدل السيد فى جلسته ، وعاد وشم الريحان :

ـ ما أظن أن هذا سبب مجيئك ٠٠

وبادر الرجل قائلا : هذا حق ٠٠

ـ اذن قل ٠٠

ـ أرسلتنى عائشة امرأة الأستاذ تستسمحك أن تتفضل اليها ٠ وتزورها الليلة ٠٠

ـ انما الفضل لله ٠٠ ما شأنها ؟

تحرك الرجل من مكانه ، وقام واقفا أمام السيد كأنما يلتمس الاذن فى الكلام :

ـ هى امرأة غنية ، وزوجها أستاذ بمدرسة البلد يعلم الأولاد ٠ ولكنهما لم ينجبا حتى هذه الساعة ، وقد استمر زواجهما أكثر من خمس سنوات ٠٠ حتى كادت تجن ٠٠

ـ أثمة عطب أصابها ؟

ـ يقال انها عقيم كالأرض الخراب ٠٠

ضحك السيد واهتز جسده ، وبانت ثناياه لامعة كالفضة ٠٠

ـ ولكن الأرض الخراب يستصحلونها الآن ٠٠ وتخرج من بطنها نباتا طيبا أكله ٠٠

أسرع قائلا :

ـ ٠٠ ويجعل من يشاء عقيما ٠٠ ولكنها تعاند ارادة الله ٠

وضع السيد يده على كتفه وتمتم فى ايقاع جميل تطرب له الأذن :

ـ طوبى لمن جرت الأمور الصالحات على يديه ٠

أشرق الرجل بسعادة غامرة ، وأيقن أن السيد قبل الدعوة ، وأن الزوجة ستتحفه بكسوة جميلة تقيه برد الشتاء القادم ٠٠

ـ هل أخبرها بأن السيد وافق !

ـ التودد الى الناس نصف العقل ٠٠

التزم الرجل صدر السيد وقبله فوق أنفه واستدار ٠ لمح السيد « ربيعا » وهو يتوكأ بعصاه ٠٠ فى اتجاه البيت ٠٠ قال السيد :

ـ انه يعرف الطريق ٠٠ ساعده انما العمى عمى القلب ٠٠

جرى اليه الرجل ومسك بذراعه حتى وصلا الى المقعد الخشبى حيث يجلس السيد ٠٠

رفع ربيع رأسه ، ولوى صفحة وجهه ٠٠ وقال :

ـ السلام على الحبيب ٠٠

ـ عليك السلام ٠٠ اجلس بجانبى أيها الرجل الصالح ٠٠

ومضى الرجل مسرعا ليخبر المرأة بموافقة السيد ٠٠ وظل السيد يجالس « ربيع » حتى بدأ نسيم الليل يهب ٠٠ تحسس ربيع بيده كتف السيد ، ثم ضغط عليه وقال :

ـ ألى نصيب فى الكنز ؟! انه حق البلد كلها ، ولابد أن يقسم بالعدل بين الناس ·· وان كان العدل فى هذا الزمان تلون بكل الألوان ··

وداعب السيد الرجل وقال فى دعة :

ـ وأى لون تحب ؟

ـ أحب اللون الأخضر ·· بالرغم من عمى العين ··

ـ ولكننى ياربيع ادخر لك كنزا أعظم منه وافضل ، أتوافقنى عليه ؟!

ـ مادمت اخترت فلا راد لاختيارك ··

ـ استغفر الله ·· سبحان من رزق العباد ··

·· ودخلا سويا الى الداخل ، وقدم السيد له الطعام والشراب حتى ارتوى ·· ففتحت نوافذ القلب ، وأبواب الرضى ، وهبت رياح البهجة ، وتحركت ذؤابات الشجر ، وانسكب الضوء عناقيد من فضة ·· وراح يمنى نفسه بالكنز الذى آثره به السيد ·

* * *

ـ ١٠ ـ

ارتدى جلبابه الأبيض الواسع ، ولبس عمامته الخضراء ، وانتعل خفا من الجلد الخالص وتعطر برائحة الليمون ونادى بصوت رخيم :

ـ العصـــا يا صـــابحة ..

فى لمحة خاطفة وقفت صابحة والطفل الذى شب على صدرها وقالت :

ـ أية عصا فالعصى كثيرة !

لفت انتباهها التأنق الذى يبدو عليه فأرخت عينيها وتمتمت :

ـ كأنك ستتزوج !

ضحك السيد ضحكة مترعة بالفرح . فالمرأة هى المرأة ..

ـ أيعجبك منظرى !

ـ أنت تعجب الباشا ، ولكن الى أين ؟

ألقى نظرة على هندامه ، وحبك العمامة ٠

ـ أخبرنى على بأن امرأة الأستاذ تريدنى ٠٠ وتلك أول مرة يدعوننى لزيارتهم ٠٠ أفلا أتجمل !

استدارت ، وألقت بطفلها اليه ، فتناوله باشا ضاحكا ٠٠ مقبلا ٠٠

ـ كان الله فى عونها ٠٠ تتمنى أن تموت وتنجب ٠٠

أعطاها الولد ، وهو يمازحه بأصابعه التى تنقبض عليها كفه الصغيرة ٠٠

ـ وعنده مفاتح الغيب ٠٠ ناولينى العصا الأبنوسية المزينة بالعاج ٠٠ ولا تتركى الدار حتى أعود ٠٠

ومضى يخب فى ثوبه الأنيق والرائحة تسبقه تعلن عن مقدمه ٠

احتفى به الزوج احتفاء لم يلقه من زمان ٠٠ فلقد تعود الناس عليه وبدأوا ينشغلون بأنفسهم عنه ، الا اذا جد جديد أسرعوا اليه يستشيرونه فيما حل بهم ٠٠ خشى أن يكتفى الناس بما فى أيديهم ، ولا يعطونه الاحترام الواجب ٠٠ هم فى حاجة الى من يصدمهم فى قلوبهم ونفوسهم ٠٠ ولعل تلك الزيارة تفعل فعلها ، فتثير الهامد منهم ٠٠ ويعودون كما كانوا يدورون حول المحور المتألق المضىء ٠٠ افتر ثغره عن ابتسامة الرضا ، وهو يرى الأستاذ يحسن استقباله ، فاطمأن ٠ قلبه يحدثه بأن المكانة لاتزال مكينة فى القلوب ، وأنه لايزال نجم السماء الذى يقبض على العيون ، ويرش النور على القلوب ، ويهز بالصوت الرخيم الأبدان الثقيلة ٠٠

شرب الشاى بالنعناع ، ثم انتحى به الزوج فى حياء ملحوظ ، وأفضى اليه برغبة زوجته ٠ فلسنوات طويلة لم ينتفض الرحم بجديد ،

وليس ثمة اشارة الى خصوبة قادمة ، ولعل الله يختار لنا الصالح ، وجاء اختيارنا عليك لما وصلنا من علمك وفضلك وخبرتك ·· وأولياء الله لا يمنعون خيراً عن أحد ·· ولقد اكتوينا بصمت غويط حاد النصل يلف البيت كله ، والأمر أصبح الآن بين يديك · ودخلت الزوجة وفى يدها صينية عليها فناجين القهوة ·· تطلع اليها السيد ، ورمقته بجانب عينيها ·· وقدمت له القهوة ، مد يده وظل الفنجان فى يده ·· وأرخى عينيه وتمتم فى همس شحيح :

ـ اللهم اجبر خاطر المنكسرين ··

وتذوق السيد القهوة فأسعده ما أحس به والتذ ، قال ولاتزال عيناه مرخيتين ·

ـ قهوة بالزعفران !

ردت عليه بتؤدة مقصودة :

ـ عرفنا أنك تشربها بالزعفران ··

ـ أصلح الله حالك ··

وانسحبت الزوجة وخلفت بلسما يريح القلوب المتعبة ·

واقترب السيد من الأستاذ وربت على كتفه وقال :

ـ اللهم انى أسألك خيرها ، وخير ما استتر فيها ، وأسألك خيره ، وخير ما بطن فى صلبه ·

تهدج الرجل فى صوت ندى كللته قطرات دمع عصية وقال فى اطمئنان قلبى :

ـ اللهم آمين ··

ـ الأمر يحتاج الى خلوة مع المرأة ·· والأمر لك ··

ـ أن كان ولابد فلا مانع ٠٠

نهض السيد ، قائلا فى ابتهال :

ـ على الله قصد السبيل ٠٠

سبقه الزوج ، وأسـر الى زوجته بمطلب السيد ٠٠ وبين أنه فى سبيل الانجاب قد يقدم المرء على فعل لايوافق عليه ٠٠ والخلوة فيها دعاء ، والحرص واجب ، وأنا على الباب واقف ٠٠ وانبثق من داخلها احساس مترع يحملها فوق موجة عاتية ، يهاجسها بأن الحظوظ تتغير ، وأن الحياة تخلق من جديد ٠

ودخلت الى حجـرتها ، وأطلت فى المرآة ، لاحت عينـاها الخضراوان وشعرها المسترسل ووجهها المشرب بحمرة الشفق ٠٠ فارتعش قلبها ، واهتز جسدها وتمتمت فى اطمئنان واثق « ان لم ألد فمن يلد !! » لا يتصور أن يحمل هذا الجمال جدبا وانقطاعا ٠٠ وشرعت ترتب الحجرة ، وتسدل ستائرها الرقيقة ، وتفرش البساط المخملى ٠٠ وتضع المخدات فى الأركان ، ولا تنس أن ترمق جسدها كلما خطت أمام المرآة ٠ هى الآن على الحافة ، اما أن تسقط فى قاع معتم مظلم يجلب الموات واما أن تقفز عاليا فتطول الغيم وتمسك القمر ، وتحتضن الملاذ ، والملجأ ، وتقبض على البذرة الرابية ٠٠ الآن هو الحلم ، فلتقبض عليه ، فمع السيد لايبدو الحلم مستحيلا ٠٠

سيطرت المشاعر عليها وتسلطت بقوة قاهرة لم تعهدها من قبل ٠٠ هذا الانثيال الذى يفيض عليها ويغرقها ويفضحها ، لم يأتها من قبل ، أيكون البشارة ! ما أشد حاجتها اليه ! ٠٠ والى العـاطفة التى حلت بها ، فأرخت كل مشدود ، ومست كل عصب ، ودخلت الى المسام الرقيقة المخملية ، حاملة أحلاما ودفئا وأملا ظليلا ٠٠

.. ودخل السيد الحجرة .. أسلمه الزوج الى امرأته وأغلق الباب بيده .. ومشى الحياء فوق الوجه ..

جلس السيد على البساط ، ولملمت ثوبها وجلست . دفست يديها بين طيات الثوب .

رآها كاملة البهاء ، ناضجة الأنوثة ، فتذكر الزلزال الذى كان يداهمه ويكتمه بارادة من فولاذ .. تبادلا نظرة طويلة صامتة ، فانكشف القاع تحت سيال غامض مبثوث يعرف طريقه جيدا ..

ـ أيتحقق الأمل على يديك !

ـ الأمل مطلوب وضرورى فى زمان خلا من الأحلام .

الأحلام ! نهضت ولسانها يردد كلمة الأحلام . عاشت سنواتها الخمس تقبض على هذا الحلم الوردى كل صباح ، وكل مساء .. وما قبضت الا سرابا ..

دارت أمامه ، حائرة قلقة ، الرجفة تشمل كل عضو فيها .. كل قطعة تهتز . ولاح العقد حول الرقبة وعلى الصدر يعكس سخونة، ويشع ضوء مثيرا . ومشت يداها تمسح على جسدها كله ، وتتباطأ فى المسح .. وكأنما تفعل ذلك بفعل غريزة جائحة لا سيطرة لها عليها ..

.. أفاق السيد من دهشته وتناول يدها وضغط عليها ضغطات متوترة ..

وحدقت فيه ملتاعة ، هذه الضغطات المثيرة تبعث برسالة خفية .. أرادت أن تسحب اليد فلم يسمح لها وقال :

ـ ستكونين أما بمشيئة الله فلا تقلقى ..

انطرح جسدها أمامه ساكنا ، وداخلها يعزف لحنا سماويا :

ـ تكون أحييتنى من جديد ··

ـ لله الأمر ··

وتقدم اليها ·· يداه ممدودتان ، وكان الجسد الساكن يئن تحت ثقل انفعال كالاعصار وكانت الكلمات التى يصدرها السيد تغزو القلب وتنفضه :

ـ اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا ··

حانت منه التفاتة ، وهى فى غاشية تشملها ، فأنكر الأمر ·· وبدت له فى موقفها شيئا غريبا قد خرج لتود من بئر ليلى عميق ·· وأدرك أن الرغبة انما هى تدريب على ممارسة الحياة فى لحنها الأبدى · ولكنها تخلف شيئا كالعدم ·· يناسب هذا الحلم المجهول · ولاحت له النهاية فى لمحة خاطفة فران عليه صمت مريب ، وشملته راحة فجائية مشبعة بالأسى الحزين ·· ونظر الى لاشىء ، كأنما لا ينشد شيئا فى موقفه العصيب هذا ·· سوى أن يلطف الله بعباده ، ويخرجهم من دائرة الحرج وضعف النفس ·

نظرت اليه فى ابتهال حقيقى وأسى دفين وقالت :

ألا تحدثنى ··

عجب لاقتحامها هذا الصمت الذى دخل فيه ، واندهش لرغبة المرأة فى تطفلها على التوحد النفسى الذى شمله ، وأحس تجاهها ـ بالرغم من ذلك ـ بعطف حقيقى ·· ولكنها يجب أن تقف فى مكانها لا تتعداه ـ واياها أن تهدم هذا البناء الشامخ الذى أقامه يوما بعد يوم ، حتى صلب وامتد جدارا سامقا ··

ـ لا خير الا فيما اختاره الله ··

فتحت عينيها على اتساعهما وارتعش الجسد وكاد ينهار ··

ـ ألا من أمل ·· لا تعذبنى ، ولا تجلس صامتا كالحجر ·

تنفس بصعوبة وقال فى صوت متهدج :

ـ اللهم انى أسألك خيرها ، وخير ما جبلتها عليه ·· وأعوذ بك من شرها ومن شر ما جبلتها عليه ·· اللهم أنت الرازق ، ولا رازق غيرك ، ونحن الحرث وأنت الزارع ·· هذه أمتك ، أصلح لها نفسها ، وأشغلها بما يشغلها ، واجعل العائق سهلا ·· وافتح المجرى لانصباب الماء ـ وأصلح العاطب منها ·· اللهم رب الناس ، اذهب البأس وأنعم عليها بما يخصبها ·· وارو العطش فيها ، اللهم اشف عبدك الذى خلقت ، والذى صورت وأبدعت ·· اللهم جنبها الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتها ··

واقترب من الباب ·· وصوته عال كالصراخ وهو يقول كالمحموم :

ـ اللهم اشفها ، اللهم اشفها ، اللهم اشفها ··

حتى أن الزوج فى الخارج ، أرجفه الدعاء فبكى ··

وانتحى ركنا فى الحجرة ، وجلس القرفصاء ·· ثم نهض ومعه قطعة من القطن مبلولة ·· تصدر منها رائحة الزعفران ·· وقال هامسا :

ـ بعد أن تتطهرى ·· ضعيها فى مكانها ·· ولاتأتى زوجك قبل ثلاث ليال ··

واضطرب صوته بصورة واضحة ، وهو يرى هذا اللحن المستكن فى عروقها ·

ـ اللهم جنبها الشيطان · ·وجنب الشيطان ما رزقتها ··

وسمع الزوج شهقة امرأته ، شهقة لم يتعودها ، شهقة تحمل آلام النفس ، ورغائبها ، فتقلص قلبه ، وتردد فى أن يفتح الباب ·· ولكنه فوجىء بالسيد يخرج فى هدوء ، وهو يتنهد فى ارتياح عميق ·

- ١١ -

- أنت الآن مدعو الى مأدبة عامرة ..

- مرة واحدة !

- نعم .. فأنت صاحبها وان لم تشعر .

نظر اليه نظرة محايدة ، كأنما الأمر لا يعنيه ، وشاهد الخادم عينين منطفئتين ، غاب عنها لمعتها ، فأدرك أن السيد واقع فى هم يشغله ، فداخله شعور بالرضى والأسى معا ..

- لم تسألنى عن الأمر ؟

- قل

- لقد ولدت زوجة الأستاذ بنتا كفلقة البدر ..

اجتاحته موجة من الفرح حتى كادت أن تغرقه ، وأيقن أن الله يهيىء الأسباب وما نحن الا وسائل ، يصطفيها الله ويرسلها ..

ـ ما يشغلنى الآن أكبر من ذلك ··

انسحب الخادم وصدره يحدثه بأن السـيد اليوم على غير عادته ··

وهبت على السيد نسمة رقيقة تتشكل فى الفراغ فتلونه بألوان الوجد والمحبة · وقال فى نفسه :

ـ الآن جاء الموعد ··

وسحب نفسه ومضى الى صابحة فى الزقاق ·· وظلت هواجسه متناول أنفاسه ورائحته ، ودبيب قلبه ، حتى حدست بأنها تقرأ ما يدور فى الذهن ، وما تأتى به الرغبات ، وتتمنى أن تنفذ الأمر قبلأن يبوح العاجلة ·· وأن يستخلصها مما انزلقت اليه ··

·· وحين رأته حدثت نفسها بأن شيئا كبيرا ساق السيد اليها · وقفت فى حضرته البهية ، تتملاه بعمق الأيام والليالى ، كانت فى متناول أنفاسه ورائحته ودبيب قلبه ، حتى حدست بأنها تقرأ ما يدور فى الذهن ، وما تأتى به الرغبات ، وتتمنى أن تنفذ الأمر قبل أن يبوح به ، وانحنت فى أدب جم وقالت :

ـ سعد مساؤك يا السيد ··

ظهر فى برحة الدار شبح الولد يلاعب الكلب ، فأشرق قلبه بالسعادة ·· وانعكس ضوؤها على الوجه ، فبدا بهيا آسرا ··

ـ كيف حال ابنى !

أخفت فى كم جلبابها ابتسامة كادت أن تفضحها ، وغشيها حياء وخجل ، ولكنه دوما لا يذكرها بشىء ، ولا يحرجها فى أمر ·· ولا يفتح أمامها باب الجحيم الذى عاشته ··

جاس فى الدار فى بطء وأناة · كان يتعذب وهو يرى الشيشة ، والجوزة ، والدخان ، والفحم ، والأحجار ، والكانون ، والأكواب ، والأباريق ·· وتوقف أمامها ، وهو لايقوى على مشاهدتها ، ومرارة تعصر قلبه ·· أوصلت اللعنة الى هذا الحد ! هذا الجنون الذى ركبها أليس له حد ! هذا التشفى من نسوان الحارة لم يجلب لها الا الدنس والخيبة ـ قلبها صـــــاف ومحب ، والولد ملأ فراغها النفسى ·· وهو لا يقوى على الكراهية ، بل انه يتعلق بها ويسعد حين يراها ، وما أغلق فى وجهها يوما باب الفرح ، وغرف السعادة · وأشار الى هذا كله ، هذا الفساد الذى طفا وملأ البرحة ··

ـ لا أحب أن أرى هذا ··

حدثت نفسها بأصوات مبهمة ، وأفاقت من ذهولها وقالت :

ـ لن يغفر الله لى ··

قال متنهدا ، فوصلها النفس حارا صاهدا ··

ـ عماك الحقد على النسوان والرجال معا ·

ـ لقد تشفوا فى يا السيد ··

أدرك فى لحظة خاطفة أن القلب هو المرشد الى الضلال ، وأنه يجب أن يقتحمه بكبرياء ، ويخترقه على طريقته ··

ـ النفس هبة من الله ·· كيف طاوعك القلب على افسادها ·

تذكرت أيامها ، ولياليها ، ومأساتها ، وقالت :

ـ تلك ارادة الله ·· ما خلقت للراحة ·· ان همومى أكبر مما تتصور يا السيد ·

وهمت باسترسال فى الحديث ، ولكنه مضى مســرعا الى الأدوات ، وكسرها ·

وانهال عليها بعصاه ، حتى أصبحت كالهشيم ·· كان قلبها يرقص فرحا ــ وهى تراه يعدو بسهولة عطن القلب ·

تمتمت فى حياء :

ــ لعن الله زمانا ضل فيه الخير ··

ــ لا تلعنى الزمان ·· و لاتلعنى نفسك ، فما كنت يوما سيئة ·
تساءلت فى دهشة :

ــ أبعد ما فعلت يحق لى أن أطلب الرضا ؟

ــ انظرى ياصابحة ·· لو وضعت حبة القمح فى الأرض ·· أتنبت ؟

ــ نعم ··

ــ أتعلمين حالها فى جوف الأرض ؟

ــ لا أعلم ·· الا أن الأرض تحضنها فى جوفها ··

ــ لو بقيت الحبة كما هى ، ما كان الحصاد ، ولا جاء الخير ·

ــ افهمنى فلقد طمس العقل ··

ــ حبة القمح ، تعطى خصوبتها ، وثمرتها حين تتحلل فى الأرض ·· ثم تنمو زاهية متألقة ، محملة بالسنابل ·

كانت ذاكرتها ترفرف بأجنحة رمادية ، تحـــوم حول الوجه وتتملاه ، وهاهى تفرض على أجنحتها أن تخفق بقوة ، وأن تحيط به ، فلقد جاءها السيد طائرا بجناح يغربل النسيم · ويحشد تحته حزما من الضوء والنغم ·· انه يطرح قلبها طرحا ، ويلسعها الضوء المنبثق منه · أبهرها وأدهشها ، وكانت تهابه ، وتخشى منه · جاءها

يريدها أن تغلق القلب ، وتحكم الرتاج ، وتبعد الفساد وتخلص للولد، وتسير على الطريق ٠٠ فضل ان يأتى الى دارى بالرغم من اننى لا أكاد أفارقه فى داره ٠٠

ــ أشعر أننى منبوذة من الجميع ٠٠

واصل حديثه فى اطمئنان يشى براحة النفس :

ــ أنت ياصابحة تحملين أنوثة طاغية بالرغم من الشوال الذى ترتدينه ٠٠ دهش الرجال بك ٠٠ ولكنهم لم يواصلوا ٠٠ كانوا يرمون عيونهم عليك ، ولكنهم كانوا يخافون ، أبرزوا أعضاءهم ودواخلهم مع العسل والذرة والعجوة ٠ وتأففوا فى العلن ٠٠ كنت المسيطرة والقوية ، وكانوا يلهثون كالكلاب ٠٠ فكيف تكونين منبوذة ٠٠ وأنت المسيطرة ؟ لا تستخدمى يا صابحة منة الله لك فيما يضرك ٠٠

تكومت صابحة على نفسها وأرسلت نشيجها المختزن فى الصدر المنقبض ، لاصقها وهو يربت على كتفها ، ويزمها بذراعه ٠٠

ــ الله لا يمنع التوبة عن أحد ٠٠

وأخذت تمسح دموعها بطرحتها السوداء ٠٠ وتردد :

ــ ادع لى ربك ٠٠

أنهضها ، وسحب يدها الى الداخل ، أعطاها الماء ، فغسلت الوجه ٠٠ فأحست بانتعاش طارىء ٠٠ ورنت اليه بوجد مشتعل ، وجرى الولد يسابق الكلب ، وطرح نفسه فى حضنها ، فزمته بكلتا يديها ، وقبلته ٠

* * *

- ١٢ -

كانت الشمس تلهث فوق المساحات الخضراء الممتدة ، وفوق ذؤابات الشجر ، وكان الرجال والنساء والصبية يتناثرون فوق الأرض وبين الزرع ، والماء ينسرب فى قنواته ، والطير يحوم فى الفضاء ، ويصدر أصواتا كأنها الغناء ·· وشعر السيد وهو يخطو خطواته باتجاه الحقول المرعة بالخضرة بحاجته الى من يؤنسه فى هذا الكون ·· واتجه الى الشيخ أحمد ·· الذى يؤم الناس ويخطب فيهم أحيانا ··

كان الشيخ صامتا ، وذاهلا ،وأحس السيد أن الرجل يشغله هم كبير ، فهمس فى أذن الرجل :

ـ صل على النبى المختار ··

جفل الشيخ من وقع المفاجأة ، ورفع رأسه فرآه فلانت ملامحه واكتست بالرضي ·

ـ عليه الصلاة والسلام ·

ـ لا تشغل البال ·· فالأمور لاتأتى على الهوى ·

وأطرق الرجل قليلا ، ثم جذب يد السيد وأجلسه ··

ـ تغير الزمان ، ولم يعد للرجـــل منا الحكم الواجب على الأبناء ··

·· وكأن البعارة ـ تغير الزمان ـ قد أفسحت الى قلبه طريقا الى الهواجس التى تتلاعب به · زمان طويل مضى منذ أن جاء غريبا الى البلد ·· لم يكن يود أن يترك المكان الذى عاش فيه زمنه الأول ، فلم يكن المكان أفضل مما يعيش فيه الآن ·· ولكن الهاتف جاءه قبل صلاة الفجر أن يرحل · والى أين ؟! لم يكن يدرى فى الحقيقة أن مشواره سيطول وأنه مأخوذ بهذا النور الذى جاءه فجأة وحرك مساره الى هذا الاتجاه الذى مضى فيه ·· كان يتلظى بنظرات الناس حين كانوا يواجهونه بأصله ·· أى أصل هذا الذى يتيه به الناس بعضهم على بعض !! الطين اللازب ، أصل الخلق ، والتراب الجاف مصيره ·· ولكن العيون كانت تتهمه دائما ·· وما اقترف يوما ذنبا ·· لقد آثر أن ينعزل عن القوم ، وأن يبتعد عن هذه الألسنة الحامية تخترق قلبه ومشاعره ·· قالوا فى مجالسهم أنه جاء فلتة ـ كيف يأتى الانسان الى حياته فلتة ؟! وقد مضى زمن الاعجاز ·· وقالوا على رءوس الأشهاد ، أنه جاء مجهول الأب ·· ما أتعس ألا يعرف المرء أباه ! والأم هذه الانسانة الورعة التقية التى ما نامت الا على ضوء ·· وما قامت الى صلاة الا وسحت عيناها بدموع حارة ، وتهدج صوتها بابتهالات خاشعة ·· أمثل هذه الأم الحنون ، الطاهرة، تأتى بولدها دون أن تختار الطريق الصحيح لمجيئه ·

·· وكانت كلما تلمح عذابات النفس قابضة على القلب والوجه والجسد كله ، ينتفض الدمع فيها ويسح ، وترنو فى أسى لا يعدله

أسى ، وحزن يشمل الكون كله وتصمت ، ولكن الولد الفارع المسمم بنظرات القوم واتهاماتهم يريد أن يقف على قدم راسخة ، يتمنى أن يواجه القوم ، وأن يفقأ العيون ، وأن يسمو بأمه الى آفاق عالية ·· هذا الطهر والنبل لا يلدان سفاحا ، ولا يأتيان الى الدنيا بولد مجهول الأب ·· ويحتد الولد فى وجهها ··

ـ كيف يا أمى ؟

وتتقلص أعضاؤها ، وترنو اليه فى ألم وهى تراه يتعذب ·

ـ ارادة الله يا ولدى ··

ـ نعم ·· ولكنك تعلمين ··

ـ لا جدوى من العلم ·· أنت شاب فارع تستطيع أن تواجه الحياة ··

أية حياة تلك التى يمكن أن يواجهها هذا الشاب المجهول ·· وسط هذه الغابة الشائكة من العيون المتهمة ، والقلوب المتحجرة !!

وينعزل عن الناس ، ويلزم الزاوية ، لا يشارك أحدا ، ولا يهتم به أحد ·· سوى ذلك المؤذن الضرير الذى كثيرا ما صاحبه ليله بالزاوية ·· وشاركه همومه ··

·· هذا الشيخ الندى الطرى الصوت الخاشع النبرة أدخله فسيح التلاوة ·· وأرعشه بنداوة الكلمات وحلاوتها ··

ـ ألا تراجع معى سورة الكهف ؟ ·

ـ ولكننى الليلة مهموم ··

ـ اقرأ معى ·· وسينفتح القلب ويتعطر ·· ياسيد لا تشغل البال بالناس واجعل امامك القرآن ··

ــ ليس لى من زاد سواه بعد ما تركت الدنيا ولزمت الزاوية ٠

ــ حين تعلم أنه يعلو ولا يعلى عليه ٠٠ ستجد الناس ذرات ضئيلة ، كالهباء تذروه الرياح حيثما شاءت ٠٠ وستفرغ له ، وسينير طريقك ٠٠

فى فجر هذه الليلة جاءه الهاتف ٠٠ أن يرحل ٠٠ وقبل أن ينسلخ النهار من رداء الليل ٠٠ رحل ٠٠ واستقر فى هذاالمكان ٠٠ وشاء الله له خيرا ٠٠ ولكن ٠٠ تغير الزمان ٠٠ حتى أهل البلد تغيروا لم يعودوا كما كانوا ٠٠ ما أصعب الزمان حين يأتى على القلوب بما يطمسها ٠٠ كبر الصغار وشاخ الكبار ، وتعددت الأمانى، وتشابكت الخيوط ٠ وانشغل الناس بحاجاتهم ، وتفرقوا فى السبل ، واكتظت البلد بناسها ، وقعد من قعد ، وهاجر من هاجر ٠٠ ولم يعد لدار السيد تلك المكانة التى شبت عليها ٠٠ ولكنها على أية حال لاتزال عامرة بالصحبة القديمة ، وبمرضى النفوس ، وبالطامعين الى التطهر وصفاء القلب ٠ وشعر بأن الزمان الباقى يثب وثبة موفقة نحو حياة أهدأ وأخصــــب ، وأنه لا يخلو من هبات تحرك القلب والوجدان ، وتبدد غيما داكنا من الزمان الأول ٠٠ وانبجس من أعماقه احساس جميل يدعوه فى همس ناعم أن يتذوق راحة القلب فى اطلالة المحبين ٠٠ ويستمع فى هدوء ساكن مترع بصمت أبدى الى انفعالات النفس المتلاطمة قبل أن يأخذه التيار ويمضى ٠٠

٠٠ وتمتد يد الشيخ ــ وقد رأى حال السيد ــ تهزه من غفوته ٠٠ وقال ضاحكا :

ــ أخرجتنى من غفوتى ، فغفوت أنت ٠

ورقرقت عين السيد ، وفاض منها نور كالومضات المنبعثة من نجم بعيد ٠٠ وقال فى تنهيدة :

ـ انما هو الزمان ·· قل ما يشغلك ··

اقترب منه وبدا عليه اهتمام واضح ، وكأن الأمر يضغط عليه ويثقل كاهله :

ـ يشغلنى أمر تعليم الولد ·· أود أن يلتحق بالأزهر ··

ويبتسم السيد فى نداوة ويقول :

ـ يذهب حنينك الى المعهد كثيرا يا أبا على ··

ـ نعم والله ·· الحنين موصول ودائم ·

ـ والولد ألم تعرف هواه ؟

أطرق الشيخ رأسه وقال فى هم واضح :

ـ هوى الأولاد هذه الأيام مع المدارس ··

ـ هو وهواه ياشيخنا ·· لا تفرض على الولد حنينك ·· لقد تغير الزمان ·· ألم تقل ذلك الآن ؟!

ـ السيد يقول هذا ·

ـ ولماذا لا يقول ·· وتلك سنة الزمان ··

وضحك السيد حتى لاحت ثناياه مبرقة :

ـ أتود أن تجعل منه ابن تيمية آخر ··

ـ خذلتنى ياسيد

ـ تلك حكمة الأيام ، وتصاريف الدهور ، دعه يخوض بحار الطبيعة والحكمة فلعله يخدمنا يوما ··

وران على الشيخ صمت مريب ، وأخذه هاجس أن يكون السيد قد تغير ، أو أن الولد سبقه اليه ، وفاتحه فى الأمر ، وطلب منه أن يشد أزرد أمام أبيه ·· وتمتم فى حزن :

ـ أنت الذى تقول هذا ··

ولملم السيد ثيابه ونهض ، كان يتجه الى الأفق الواسع العريض المترع بالخضرة والممتد بحد الجسر الطويل ، وخيوط الشمس تحضن الكون فى دفء نبيل ، وزرافات الطيور تشـــــق الأفق ، وتزاحم الفراغ ··

ـ يا أبا على ··

هب الشيخ نشطا ، فلعل السيد راجع نفســـــه ، واختار له الطريق ·· أمثالنا لا يستطيعون المضى بلا دليل ·· ومهما تعلمنا ، فلازلنا نحتاج الدليل ··

ـ نحن فى مسيس الحاجة الى علم ينفع الناس ويمكث فى الأرض ·

وارتعب الشيخ وقال فى حدة :

ـ معاذ الله ·· لقد تغيرت كثيرا ··

ـ لم أتغير ·· ولكنها حكمة الزمان · لقد تكفل الله سبحانه بحفظ دينه ·· ودينك يدعوك الى البحث فى مجاهل الانسان والكون ·· والخير باق ما دمنا نعض بالنواجز على الكتاب والسنة ··

وبيده أدار رأس الشيخ الى السماء ·

ـ هذا الطائر الأخرس ·· من يهديه فى هذا الفراغ الهائل ؟

تمتم الشيخ فى خفوت مرتعش :

ـ تجلت أسماؤه وصفاته ··

ـ لقد خلق الله فيه طبيعته القادرة ، والمحدودة ·· يا أبا على

نحن فى حاجة الى من يكشف طبائع الكون باذن الله ‥ اذهب الى الولد وطمئنه ، فلازالت الأرض مختومة لم تفض ‥

ود الرجل لو تنشق الأرض وتبتلعه ‥

وتركه السيد ، وانسابت خطواته الهوينى تختلط بموج مترع بالخضرة والبهاء ‥ حقول غنية بالبرسيم والأرض تعد بمواسم رائعة من حصاد للقمح والذرة ، والماشية تجتر علفها الأخضر ، مؤذنة بحليب طازج فى المساء · ووقف لحظة يرشف من رحيق الكون رشفة صافية ، تجلب السعادة والرضى ، فما أجمل أن يندمج الانسان فى الكون حتى يصبح ذرة من ذراته ، سالكة فى مداره ، منسجمة مع الملكوت ‥ وجاءه صوت طائر يردد لحنا شجيا فانسرب الى داخله ، وامتزج ، فشعر بأنه يخف ويشف ، وينسلخ عن هذا الرداء الغليظ ، الذى يحدده ، ويجسمه ‥ كما تناهى الى مسامعه أصوات أنين موجع ينبعث من منحنيات النهر حيث السواقى ، والتوابيت ، فانبجس فى داخله انفعال جائش يعبق بعطر الوجدان الطازج الذى ظل يحمله منذ جاءه الهاتف يدعوه الى الرحيل ‥ ذلك الانفعال الذى يشعره بأن القلب موصول بنبعه الأزلى ، وأن الرغائب الجسدية محكومة بخيط الحياة ، واستمرارها ، وأن السمو فى التسامى والعلو ‥ وان خلف وجعا ، وألما ، وأنينا ‥ مشى خفيفا ، كأن قدميه تلمسان الذؤابات وتعلو ‥ شعر بأنه مأسور بجمال الكون فى هذه الساعة المتأخرة من النهار ‥ وبدأ يرتل الآيات الكريمة التى تتناول جمال الكون وبهاءه ‥ كانت عيناه طافيتين فى الوجود دون أن يدرى أن ثمة من يلاحظه فى سكونه الداخلى ‥ وعزلته الوجدانية ‥ حتى كاد أن يسقط وهو يعتلى الجسر المؤدى الى منحنى النهر ‥

تنبه اليها ، وهى تجلس تحت شـــجرة جميز تفرش فروعها وأوراقها المساحات بالظلال والثمر أيضا ‥ رمقها فأحس فى عينيها ألما وهما كبيرين ، قعد بجانبها وقال فى ود :

ـ ما الذى جاء بك الى هنا يا أنيسة ، وأنت امرأة تحتاج الى رعاية ؟!

ـ قلت لعل الخلاء يحمينى ، بعدما افتقدته فى الدار ··

ـ ما بك يا أنيسة ·· فعمرك الطويل وأنت تعيشين بمفردك فى بيتك ·· هل جد جديد !

ورددت أنيسة بفزع واضح حتى كادت تجفل السيد ··

ـ طه ، طه الذى يتركه الناس ينال منهم دون عقاب أو ردع ·

تنهد السيد ، وهو يقول :

ـ اللهالهادى ·· ماذا به !

ـ أراد أن يعتدى على ·· لم يفرق بين أحد ـ السكر أعماه ··

ـ هذا الكلام عيب ··

ـ لم يعد لى من ملاذ سواك بعد الله ··

وحكت أنيسة للسيد ، القصة وهى ترتجف فى ذعر :

ـ كنت نائمة على السطح ، ولم أشعر الا بجسم ينطرح على صدرى ، فتحت عينى متثاقلة فوجدته طه ، تفوح منه رائحة السبرتو ··

ضحك السيد مداعبا أنيسة وهى تتحدث عن أمور نسيتها بحكم العمر والزمن ··

ـ ثم نمت ثانية ، وقلت فرصة ··

خبطت على صدرها وهي تحدج السيد فى عتاب غاضب ·

ـ لقد رفسته فى بطنه ·· وصرخت · قليل الحياء لم يكن يستره شيء ·· ولولا امرأة أبو اليزيد ، ما استطعت النجاة منه ··

وتمد يدها بطولها ، وتخرق الفراغ باصبعها وتصرخ فى حدة :

ـ كيف تتركون واحدا كهذا لا يؤمن جانبه ؟

وينتحى الشيخ فزعا ، هكذا بدأ ، من اصبع المرأة ، وقال :

ـ لم تعودى قادرة على خدمة نفسك ، أنت ستأتين ، وتعيشين معى ·· مثل من يعيشون ··

ـ لا حرمنا الله منك يا السيد ··

وفرحت فى قرارة نفسها ، أنها ستكون قريبة منه دوما ، وأنها تعيش ما بقى لها من عمر فى حضرته ، كلما استقام العود ، وهيأت القدرة لها الفعل ··

ـ اذن ، هاتى حاجاتك ونحن فى الانتظار ·· أما طه فلنا معه حساب ··

ومضى يستغفر الله ، ويطلب الهداية لعباده ·· وتطرق تفكيره الى الحال التى وصلت اليها البلد ، فقديما كانت المعارك تدور من أجل تقليع زرع ، أو سم بهائم ، واثارات قديمة ·· أما الآن فقلة الحياء هى سمة هذا الزمان ، والتجرؤ على الأخلاق علامة أخرى وامتد به الطريق حتى وصل الى ممرات ضيقة تتخللها قنوات مياه تنساب منها المياه لسقى الأرض · تخطى ممرا ، وآخر ، ووصل الى المدق الترابى بامتداد النهر ·· كانت حافتا النهر تمتلآن بالحيوية والنشاط ، الكبار يغمرون الأرض بالمياه ، ويضعون السدود فى القنوات ، ويديرون طنابيرهم فى حيوية متدفقة ، والصغار منهم من يساعد ، أو يؤاكل البهائم ، أو يلف وراءها فىالتابوت ، أو يستحم

فى المساحات الضحلة على الشاطىء ـ أما النساء فقد أحضرن الطعام ·· فقد يمتد العمل الى الليل ··

ألقى عليهم السلام ، ودعا لهم بالبركة والرخاء ـ كانوا فرحين مستبشرين وهم يرونه أمامهم بهيبته المعروفة ، وبطلعته البهية ، وبقامته الممدودة · قبل أن يتركهم صادت عيناه واحدا من الرجال ينحنى فى احدى القنوات وقد شمر ساقيه ، وحزم بطنه بذيل جلبابه، وقدماه غائصتان فى الطين ·· اقترب منه فى تمهل وقال :

ـ العافية !

رفع الرجل رأسه فلمح السيد ·· فرد فى صوت يلهث :

ـ العافية لك يا السيد ··

وعاد يمرر يديه فى مسرى القناة يخلصها من عوائق تعيق الماء ··

وكتم السيد فى نفسه غضبا وصله ··

ـ ألست أخا لطه ·· ؟

ودون أن يرفع رأسه قال :

ـ انه أخى من الأم ··

ـ وأخوك من الأم ·· ألا تنصحه ، وتهديه !

ـ ماذا فعل ! ؟

ـ انه يتعرض لأعراض الناس ·· وما عاد يميز بين كبير أو صغير ·

لوح بيده عاليا حتى كاد رذاذ الماء يطول السيد ··

ـ أنه معذور ·· وطائش ·· امرأته عاقر لا تلد ، وهذا يسبب له كدرا شديدا ··

وتقدم الرجل يخب فى الماء والطين حتى وصل اليه ·

ـ ألا تصلح له امرأته ·· كما أصلحت زوجة الأستاذ ؟ أم لأننا فقراء ·· لا نملك ما ندفع ، ولا نقيم حفلات ·· نسقط من قعر القفة ··

هذا التجرؤ عليه لا يستقيم وهيبته ، وتاريخه معهم ·· ولكنه على حق ·· فمثله يتجشم تعب العمل المضنى ، والرزق أضحى شحيحا ، والنفس لم تعد راضية ، لقد امتدت العين فى نظراتها الى الغير والى ما فى أيديهم ··

ـ والله انه طيب ، ولــــكن ما أن يفكر فى الأمر حتى يركبه عفريت ، فينسى همه فى هذا السبرتو الملعون ·· فقير لا يملك أن يشترى الأنواع الأخرى . ولكنه طيب ··

ـ أرسله الى الليلة ·· والله الهادى الى سواء السبيل ··

ـ سأفعل ··

ومضى قافلا الى البلد ·· كان يتمنى أن يظل فى هذا الكون المترع بالجمال ، ولكن الرجل ، عكر الصفو ، وذكره بأن الفقراء فى البلد قد جمعوا مع الفقر خسة النفس ·· ولؤم الطبع ·· تماما كما جمع الأغنياء ·· والكبار ، والمتعلمون أيضا ·· بالرغم من أن الفقر أضحى فى هذا الزمان نسبيا ، أين القناعة ، وأين طمأنينة القلب ! وأين الرضى النفسى ! ·· وتنهد ·· وقال فى سره :

ـ أخشى أن تكون من مخلفات الزمان الماضى ·

انها لخسارة فادحة ، لا تدانيها خسارة ، أن يشــــعر بثمة

فشل ما ، يقترب منه ·· وخشى أن يناله التحطيم ، كما نالت الثوابت من القيم والأخلاق ·· ولكنه ماض فى طريقه ، ماض فى مجرى من النور والبهاء ، لا يتعداه ·· قد يتشعب به الطريق ، ولكن حرارة الوجد ، ووجد الايمان ، يوصلانه فى النهاية ، الى منبع الدفق الالهى ·· وعتباته الفسيحة ··

وطرق الباب طرقات متوترة ، وفتح الباب وفوجىء بالضوء يغمر المكان ·· وأطل الوجه الجميل الشامخ ، فرأى الحياة فى دبيبها تكتنز بالسعادة ·

ـ مساك الله بالخير يا أم البنت ··

وكتمت عائشة عاطفة كادت تفصح عن داخلها وتكشف لهفتها ، وقالت فى صوت يتسم بنبرة ورع أخاذة ··

ـ الخير كله لك ··

مرق من أمامها ، حتى وصل الى ركنه الذى يجلس فيه ، تحت شجرة الجوافة فى برحة البيت ، الذى اتخذ سمت الجمال ، والطلاء الجديد ·· أدهشه أن يرى اللون الأخضر سيد الألوان ·· وأن الألوان الأخرى من أبيض وأزرق وأحمر ، انما هى تهميشات لونية على المساحة المتعالية ·· فأسعده الأمر ، وشعر فى حقيقة داخله ، أن ثمة خيطا موصولا لايزال ممدودا بينه وبين الآخرين ·· وخفف عنه مالحقه من ألم نفسى من تجرؤ الرجل عليه ··

ـ أين ابنتى ؟

ونادت على ابنتها ، وجاءت البنت ضاحكة ، راقصة ، وارتمت على صدره ·· كعادتها كلما تراه ·· كانت شفتاها ممتلئتين ، وعيناها خضراوين تتفتقان بجمال حقيقى ·· أخذها بين ذراعيه ،

وظلت ملتصقة فى حضنه كأنما ترى فيه حصنا ، وتشعر فيه بدفء حان ..

ووقفت بجانبه ، ينبعث من العينين ألق ينطق بالوفاء ، والشوق .. والمنة الصادقة ..

ـ أخذت منك الأنف يا السيد ..

أحس بمعاناة حقيقية ، وأدرك خاشيا أنها قد توصله الى مجهول لا يرحم .. وأن العكوف على العبادة والجهاد فى المجاهدة ، قد لا يحجب النية الخفية واللظى المكتوم .. وأنه يكفيه ما حدث له اليوم ، وما يحدث له فى هذا الزمان المتغير ..

وظهر فى مدخل البهو الداخلى الأستاذ ، فسعد برؤيته ، ولم يعد يساوره قلق بأن الرجل يحبه ، وأن نفسه مطمئنة ، وأن قلبه راض .. فمال اليه ، وصافحه ، ثم التزمه وقبله .. وجلسا يتسامران ساعة ، وكانت البنت تقفز كالفراشة ، والمرأة لا تقوى على مداراة الفرح ، والرجل يشع منه عرفان حقيقى .. فقال لنفسه وسط هذا الجو الجميل المنعش بعواطف نبيلة ، أن الله لم يخلق البشر عبثا ، ولم يخلقهم للراحة الوقتية ، ولم يحدد طريقا واحدا .. بل تشعبت الطرق ، واختلفت المسالك ، وما على الانسان الا أن يرضى فى اختياره .. بهاجسه القلبى الذى ينير له طريقه فى بيداء حياة مقفرة فمهما زهت وربت وامتدت .. فلن تخلف الا قفرا مجدبا ..

وحين ودع الأسرة ، حمد الله أن استطاع أن يضفى بعضا من الهناءة الدنيوية ، على قلوب كانت عطشى الى السعادة .. وحرك خاطر خامره ، مشاعر دنيوية ، وآملا فى النفس تحركه شجون الوحدة ، وتقدم العمر .. ولكنه نحاه بقوة . وسد فى نفسه مسارب الضعف ووساوس النفس وابتهل الى الله فى خشوع قائلا :

ـ لا اله الا أنت سبحانك ، انى كنت من الظالمين .

ـ لا اله الا أنت .. برحمتك استغيث فلا تكلنى الى نفسى طرفة عين .. اللهم اصلح لى نفسى التى بين جنبى ، وثبت قلبى على الايمان ، وقونى على النهاية ، واشعرنى بحلاوة الوجد .. ياحى ، ياقيوم ، يا الله ..

.. واقترب من الدار ، ولايزال صوته يتردد فى الليل .. يا الله .. فيصفع الصمت ويخرقه .. وكان بعض الرجال قد تجمعوا أمام الدار ، يفترشون الحصر ، ويتسامرون على ضوء الموقد الغازى المبهر الضوء .. وبدت من الداخل جمرات النار تضوى استعداداً لصنع القهوة بالزنجبيل ، أو بالزعفران ان كان مزاج السيد رائقا .. فتلك عادتهم ، أن يأتوا اليه يسامرونه ، ويلقى كل واحد بهمه ، فى الليالى التى لا تقام فيها الأذكار .. ونهضوا حين لمحوه قادما .. فتعجل الخطى وأقبل عليهم ، وسلم ، وقعد معهم .. رأى طه فى ركن بعيد ، فأشار اليه .. كان منكسر النظرة ، مطأطىء الرأس .. ولما قعد بين يديه ، تعجب الحاضرون أن يكون طه جليس السيد .. وصلت مسامعهم أصوات أنيسة المنبعثة من داخل الدار :

ـ النجس الذى لا يرعى حرمة لأحد ..

ـ طه ، لن أحادثك قبل أن تدخل ، وتغتسل وتتوضأ ، ثم تمضى الى أنيسة ، وتعتذر ، وتطلب منها السماح ..

ونادى على من فى الدار أن يسمحوا له بالدخول والتطهر ، ونظر الرجال الى السيد متعجبين ، وتساءل واحد منهم :

ـ أراك عطوفا عليه ..

تفحص العيون ، بعينين حانيتين وقال :

ـ لأن يهدى الله بك واحدا خير من الدنيا وما فيها ..

احتد واحد وقال فى دهشة :

ـ ولكنه خاض فيك ، واتهمك .. وماسمحت لنا بتأديبه ..
ولم يعلق السيد بشىء ، فلقد علقت عينه بطه مغتسلا متطهرا ..

فأجلسه بجانبه ، وآنسه ، وأعطاه فنجانا من القهوة وقال :

ـ اللهم انا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم .

وارتعد طه . فما تعود يوما على مجلس كهذا ، وما سمع دعاء يخرج من الأعماق فيهز النفس كهذا الدعاء .. وتداخل طه فى نفسه وصوب نظره الى السيد وصمت ..

ـ اللهم فرج عن عبدك ما هو فيه . وأصلح شأنه وساعده .

واتجه السيد الى الجماعة وقال لهم :

ـ ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة ..

اللهم انا نسألك العافية فى الدين والدنيا والآخرة.

وأمن الجالسون على الدعاء ، الا أن طه لم يقو على أن يشارك القوم صوتهم العالى ..

كانت شفتاه ترتجفان ، وينسرب منهما الصوت خافتا لا يبين . وحدس أن فى الأمر شيئا ، وأن مجيئه مرتبط بما قالته أنيسة فى الداخل . .وتنهد فى رجفة أيكون الله قد رضى عنه .. ونطق فى عجلة ..

ـ قبل أى شىء ، أرجو أن تسامحنى ، فلقد ظلمتك .

وببرود ظاهر قال السيد :

ـ من أنا حتى أسامح ·· المهم ألا تغضب الله ·· فتجلب على نفسك الخسران ··

وانكفأ طه على نفسه ، على حين مضى السيد يتحدث عن سنة الله فى خلقه ، ومن هذه السنن ، أن الله راعى مشاعر الانسان وظروفه الجسدية والنفسية ، فشرع له ما يكفل لحياته المسرة ، ويصون النفس من الدنس ·· ومن تلك السنن ، اباحة أن يتزوج الرجل ، لسبب ما ، كأن تكون بالزوجة علة ، أو يكون به طاقة قوية ، أو ان ينعقد بالزواج ما فيه خير الناس ··

ـ وأنت يا طه كما أعلم لك الحق أن تتزوج امرأة أخرى فلعلها تأتى بما يجبر خاطرك المنكسر ، ويهدىء من روعك ويعيدك الى الصواب ··

علق واحد من الجماعة على ما يقول السيد :

ـ مرة واحدة ·· أيكون علاجه بالزواج !

نحى واحد آخر الفنجان ووضعه جانبا وقال :

ـ لو كل واحد أصلح همه بالزواج ·· ما وجدنا نسوة تكفى ··

وبحياء غريب لم يتعوده الناس منه ، شرع طه قائلا :

ـ الحق يا السيد أننى لا أقوى على الزواج لسببين الأول اننى لا أملك تكاليفه ، والثانى ، أن المرأة التى معى ، سينكسر خاطرها ، وستشعر باهانة لها ··

ـ هذا قول ينبىء بمشاعر طيبة « ومن يحمل هذه المشاعر لن يؤذى أحدا باذن الله ··

ونطق السيد فى بطء وعيناه عالقتان به :

ـ أما المال فأنا اكفله لك ، وأما زوجتك فهذا شـــأنك .. الشريعة أباحت لنا مثنى وثلاث ورباع .. والرأى لك .. انما نريد صلاح أمرك ..

وفاضت عينا الرجل بالدموع ، ومد يده فقبض على يد السيد ، ونهنه فى ألم ..

ـ دعنى أقبل يدك ..

خطف السيد يده وقال زاجرا ـ استغفر الله ..

وتفرس السيد فى وجهه مليا ، وكأنما يود ألا تغيب عنه هذه الملامح الباهتة وقال فى صوت خفيض :

ـ عالج الموضوع ، ولا تفاجىء امرأتك ، ولا تنس أن الأمر يحتاج منك الى تعقل وحكمة ..

* * *

- ١٣ -

انتشر الخبر فى البلد ، وطاف فى كل اتجاه ، ودار فى كل الرءوس ، وزاحم البيوت حتى أضحى كالهواء الذى يتنسمه الانسان ‥ وترقرقت الأحلام فى الأحداق والنبض فى القلوب ، وتلاعبت الأمانى بالصغار والكبار · كان الخبر كأنه انبعاث متفجر لمشاعر مكتومة ، وأحلام موءودة ، وآمال انسحقت تحت سطوة الحاجة · فبدا الأمس طيفا قميئا ولاح الحاضر يفرض قلقه وتوتره ، أما القادم من الأيام فقد انعقد فى العيون موجات من الفرح يتمنى الناس أن تنهل فترطب القلوب وتداوى الجروح ‥

آن الأوان لهذه البلد أن يعيش كما يعيش غيره من خلق الله ‥ ها هى المكرمة الالهية التى اختصها الله بأهلها · فأدخر لهم فى باطن الأرض ما يجعلهم أقوياء وأغنياء ‥ قد تجلت وفاضت كما يفيض الماء فى زمن التحاريق ‥ النفوس متشققة ، عطشى ، تنتظر هذا الرى الذى ينسرب اليها فيعيد لها استواءها ، ويشملها بخصبه ،

وقوته فتلتئم الشروخ ، ويمتد نسيج الجلد مستويا بلا التواء ، فيروح التصدع ويعود التوحد من جديد ·· فالبلد ترقد على كنز مقبور فى أرضها منذ أن خلق الله الكون ·· كنز يحتاج الى جهد وفير لاخراجه من هذا الباطن المظلم فيأتى معه النور والبهاء والرخاء ·· بعد ظلمة طويلة وشدة امتدت حتى ظن الناس ألا مخرج منها ··

كان المكان بعيدا عند طرف البلد الجنوبى بامتداد السكة المؤدية الى المقابر ·· تحدد الكنز فى هذا المكان بطول خمسين مترا وبعرض خمسة أمتار وبعمق لايدرى الا الله مداه ·· تلك المساحة الطينية الصغيرة قلبت البلد كما يقلب المدراث التربة ، لتلقف الهواء والضياء ·· ثمة هواء جديد يشمه الناس ، له رائحة نفاذة تصل الى الأعماق بالرغم من عطنه وعفونته ·· أما الضياء فقد لاح فى العون ألقا كالفرح ·· زاهيا كنجوم الليل ·· وبقى عليهم أن يصطادوا الضوء من منابعه ، وأن ينحنوا بفئوس مخزونة بالقوة والأمل ··

خرج الناس الى هذا المكان لينعموا بحدث زلزل كيانهم · وكل منهم يطمع فى أن يلقى نظرة على تلك المساحة النورانية ، وأن تدوس المرأة بقدمها أو تطول المساحة ببعض أصابعها حتى تحل البركة ، وتنفك العقدة ، وتحمل بطنا رابعا أو خامسا ·· كان الناس يحيطون المكان بسياج من الأمل ·· وبقلوب ترتجف من الفرحة ، وتكاد تقفز من الصدور ··

بحثت العيون عن السيد ، فلم يجدوه ·· كيف لا يوجد السيد فى مثل هذا الموقف الجليل !

وهو الذى لا تفوته حركة ، ولا يبتعد عنه حدث ·· بل من المؤكد أنه أول من يعرف به ··

***

● خرجت أم السعد من دارها ، والشمس ترتعش رعشتها الأخيرة ·· مرت على بعض النسوة فى الزقاق ومضين سويا باتجاه الكنز ، كانت كل واحدة مشغولة بما يدور فى الداخل ··

قالت فى صوت يشبه الهمس :

ـ ياحظ من كان الكنز فى أرضه ··

طوحت أخرى بطرحتها وهى تدب فى عفاء

ـ الكنز للبلد وليس لواحد بعينه ··

نغل قلب أم السعد ، وزاحمها خوف ينهش المشاعر ·

ـ الخوف اذن سيأتى من كبار البلد ··

ـ صدقت ، كل شىء يحصلون عليه ، ويتركون لنا الفتات ··

راحت عيناها تتسكبان على المدق الصغير وهى تتحدث بصوت يرشح بوهن الأمل ·

ـ ليس لنا الا السيد ·· سيقف فى وجوههم ·· وسيحصل لنا على حقنا ··

وزغدت المرأة فى صدرها وقالت :

ـ والله ، جاء الفرج ·· وسيبرق الذهب يانسوان ··

·· وغامت عيناها فى الأفق وقدماها تأخذانها مع نسـوة تلاقين وهن يمضغن الكنز بالحلم ··

* * *

جاء العمدة الى السيد فى داره ·· لم تعد الدار متطرفة ، فقد أحاطها البنيان من كل جانب ·· ولكنها احتفظت لنفسها بتلك

البرحة الواسعة أمامها ، وتلك الأشجار السامقة ، وهذا الريحان المبثوث هنا وهناك . وتزينت ، فبدت واجهتها بيضاء وخضراء ، قد حشى التطريز فى حوافها وجوانبهـــا ، وحول تلك الفوانيس الجميلة التى تبعث النور يحاكى ضوء القمر .. واحتاطت فتسيجت بنبات شائك ملفوف وكثيف قد طرح أفرعه ، فامتدت ومالت وأخرجت نوارها ، فلاح أبيض القا كضوء الفجر ينسكب من فرجات الأشياء والأشجار .. وانبجس الماء صـــافيا ، باردا ، زكى الرائحة من « طلمبة » غاصت ماســـورتها حتى اخترقت حد الماء فانبثق .. وارتضت من الحصى أدقه ، ومن الحصير ما اخضر سمره . ومن المقاعد ما وطىء واكتنز . وأحبت أن يكون فى جانبها الأيمن تلك التكعيبة الصغيرة من شجر العنب يتطاول ويتشابك ويلتف فيصنع سقيفة من الظلال يروح النســـيم فيها فيخب فى سروال هوائى منعش ..

كان السيد جالسا تحت تكعيبة العنب ، وقد تخفف من ملابسه ، فبدت بشرته البيضاء ناصعة ..

.. نهض حين لمح العمدة ، واقتاده الى الظل .. وفوقه عناقيد العنب تتيه باكتنازها ، وحول رأســه وأنفه مرت ريح رخية تعبق بأريج الريحان ونوار النبات الشائك .. فنظر الى السيد مليا وتمتم فى نفسه .. سبحان من له الدوام .. وسبحان مغير الأحوال ..

اقترب السيد من العمدة ، كأنه يعطيه جسده كله ، فسعد العمدة وارتجف قلبه . امتدت يده تقبض على عود ريحان ـ ونزعته .. تشمم الرائحة ، وابتسم فسارع السيد قائلا :

ـ انما هو خيرك ياعمدة ..

أسرع العمدة قائلا وهو يرنو اليه فى امعان :

ـ انما هو خير الله يا السيد ·· وأنت تستحقه ··

ـ ما أعظم عطاء الله ··

ورفع يديه حتى لاح ابطه وظل يدعو :

ـ اللهم أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ··

تهلل وجه العمدة ، وبانت أسنانه المفلوجة فى ابتسامة رائقة ·

ـ وصلك نبأ الكنز ، والأمر يحتاج الى تدبير ··

لاذ السيد بصمت مجلل بسكون

ـ اصبح المكان ممتلئا بالناس حتى كدت أخشى من النتائج ·

ترى ·· من أطلق الاشاعة !

تنبه السيد فرنا اليه وقال فى صدق :

ـ ليس كثيرا على الله ·· أن تكون الأرض حبلى بما يفيد الناس ··

« وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » ·

ـ اذن فالأمر كالحقيقة ··

ـ الأرض فى ذاتها كنز ياعمدة ·· وعلينا أن نستخرجه ليربو وينفع الناس ··

« ·· أما الزبد فيذهب جفاء ·· وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ·· » ·

كان القلب يغوص ·· فما دار بخلد العمدة أن يستأثر الله للبلد بكنز دفين ، ان خرج ، غير الحال ونقل البلد نقلة جديدة ، ووضع

اسمها ، ورسمها ، وأهلها فوق الأفواه ، وصوب العيون ٠٠ وتحت المجاهر وعلى مساحات الخرائط ، والموجات المبثوثة فى الفراغ ٠٠ ستصبح البلد حدث الدنيا ٠ وفاض الداخل بزهو ملأ جنباته ، وانسكب على الوجه واللسان ٠٠

ــ فمادام الأمر كذلك ، فالحاجة الى الأمن ماسة ٠٠ والحفاظ عليه مسئوليتى ٠

ونظر الى السيد الذى كان يتملاه فى تدقيق وتفرس ٠

ــ الكنز موكول الى بحكم المسئولية ٠٠ وبك ياسيد ، نستطيع أن نتولى تدبيره ، واخراجه وتوزيعه ٠٠

وضغط على كف السيد فى نشوة ٠

ــ أنت من الآن المشرف الأول عليه ٠٠ هؤلاء القوم لا يعرفون كيف يدبرون أمورهم ٠

وضحك ضحكا متواصلا وقال وهو ينهض :

ــ نحن الذين ندبر لهم حياتهم ٠٠

* * *

لبست الحاجة ثوبها ، وطوحت بطرحتها البيضاء على كتفها وحول رأسها ، وانتعلت شبشبها ٠ ومضت تنحدر على أرض الزقاق الضيق حتى وقفت أمام الباب ٠٠ تريثت قليلا ثم دقت الباب ٠٠ استعاذت بالله من الشيطان وهى تسمع نباح الكلب ٠٠ فتح الولد الباب ، فلاح وجهه جميلا ، وشعره منسكبا على الجبهة ، فمدت يدها ومسحت عليه ٠٠ وقالت فى تمتمة لا تبين :

ــ سبحان الخالق ٠٠ كأنه يحمل ملامح ابنى ٠٠

رمقتها من بعيد ، فرمحت وجذبت الولد من يدها ، وأمرته أن يصعد الى السطح مع الكلب ··

ـ نعم ياحاجة ·· فيه حاجة ؟

ـ من على الباب يا صابحة !

ـ تفضلى ··

دخلت الحاجة وهى تبسمل بصوت عال وتردد حديثا حول الزمن الذى تغير ، والحالة التى تعسرت ، والعيال الذين يوجعون القلب ، والوضع الذى انقلب ، والكبار الذين نزلوا والصغار الذين طلعوا ، واليد التى ضاقت والرزق الذى شح ·

وملأ الغيظ قلب صابحة فقالت فى حدة :

ـ وبعد ياحاجة ·· هذا موال طويل ··

انقبض صدر الحاجة ، ولكنها مدت يدها الى رأس صابحة ·· وشبت على أطراف أصابعها ، وجذبت الرأس وقبلته ·· خلعت صابحة رأسها وهى تدمدم :

ـ استغفر الله ·· المقام محفوظ يا حاجة ··

ـ على الله مقامك وسترك ··

ـ خير يا حاجة ··

اعتصـــرت الحاجة يدها ، واحمر بياض العين ، واهتزت الطرحة البيضاء ·· فالحالة الآن ليست كما كانت ، والحاج ضعف ولم يعد قادرا على مواجهة الأعباء ، والولد طلباته لا تنتهى حتى بعد أن أنهى تعليمه ، ولا يعقل أن نبيع الأرض لنأكل منها ، ونصرف ، فالأرض كالعرض لا يفرط أحد فيها ·· الا فى الشديد القوى ··

والمرض استحكم منى حتى بت أدعو الله أن يعجل باللقاء ، فأوفر لهم مصاريف العلاج والأطباء ·· والكنز كما تعلمين ، فيه فرج للناس ، وفيه قضاء حاجاتهم ، ونحن فى أمس الحاجة الى جزء منه ·· فالحاج لم يعد له الكلمة التى كانت ، وأخشى أن ينسوه وهم يوزعون الأنصبة على الناس ·· فالناس « وشوش » ·· وليس لهم الا ما امامهم ·· والسيد ياصابحة ·· هو المسئول ، وهو المسموع الكلمة ، وهو الذى يتصرف فى الكنز كما يحلو له ·· وأنت صفيته ، ورفيقته من زمن طويل ·· وهو يحبك ، ويسمع لك ·· ولا يؤخر لك طلبا ··

ـ ومعزة ولدك عندك كلمى السيد أن ينظر الينا بعين الرضى وليزد نصيبنا من الكنز قليلا ·· فوالله ما أحوجنا اليه ··

واختلط فى العين الماضى والحاضر ، وتداخلت فوق الملامح موجات من العبوس والشفقة ، وكاد الدمع يطل فوأدته ، والقلب يرتجف فأوقفته ، والماضى يطل فاحتجزته وراء بسمة مشبعة بألم صادق ، وضحكة خفية تبرق فوق الشفاة ·· وقالت :

ـ لن تقصر صابحة فى حقكم أبدا ، ولن يبخل السيد ·· فمادام الأمر فى يده ، فاطمئنى ··

ونزلت الدموع صاهدة حارة ، ونشجت ، فلهثت وعاودها السعال ·· وانسحبت ، فى رعشة تنفضها ، ولهاث يمضها ، وهى تردد فى نفس مقطوع ··

ـ الله يستر عرضك ··

* * *

خرجت زوجة أبو اليزيد ··واصطحبت زوجها معها ·· كان مترددا ، كما أن صحته لا تساعده على التزاحم ، فضلا عن الحصول

على نصيب ما ·· فالبلد تغيرت ولم يعد للضعيف مكانة بين أهلها · قديما كان السيد يحدثه بأن الضعيف أمام الركب ·· فالناس كل الناس يساعدونه ويقدمون يد العون ·· وصحيح أنه والحمد لله قد استعاد بعضا من طاقته المنزوية ، ولكن الذى عاد لا يقوى أمام تغير الحال وقسوة القلوب ··

ـ مالنا وهذه الهوجة ··

قبضت على يده ، وقادته وهو لايزال يعتقد أنه لا مكان للضعيف وسط صراع البحث عن الكنز ، ولكن امرأته حادثته متوددة ··

ـ لن نخسر شيئا ، والفرجة على الناس متعة ، ولعل السيد لا ينسانا ·

وتمتم الرجل فى هسيس صوتى :

ـ الســـــيد ··

وتمنى أن يئد فى داخله هذا الصوت الذى يود أن يخرج ويعلن أن الذى كان صوت المساكين ، أصبح يشم الريحان المزروع فى برحته، ويستظل بظلال الكرم الكثيف ، ويأتيه الكبار · ويتصدر كل أمر جليل ·· يدور فى البلدة ·· وأن الجسم الأهيف قد أثقله اللحم · فلم يعد يزور الضعفاء ·· ولكنه على كل حال ، لا يضن ان تذكر ·· ويكفى أن الله عافاه بفضله ··

ـ اسمع يا أبو اليزيد ·· ان شاء الله سيكون لنا نصيب ككل الناس ·· اننى سمعت أن السيد سيقوم بتوزيعه حسب الحاجة ·· ونحن من أحوج الخلق · ·وقتها ·· سنبيع قطع الذهب ، ويجرى المال فى يدنا ·· وأول شىء سنفعله ، أن نذهب الى الطبيب الكبير الذى يقولون عنه فى المدينة ·· صحتك أولا ·· نحن ضعفنا منذ

مرضت ·· وان بقى منه شىء لا يمنع أن اشترى لك ثوبا جديدا ، ولى أيضا ·· أم تستكثر على الثوب ·

رقرقت عيناه بالدموع ، وتهدج الصوت ، وقال :

ـ أنا لا أضن عليك بحياتى كلها ·· ولكن قولى ·· يارب ··

* * *

حين تقابلا فى الطريق تفرس كل منهما فى ملامح الآخر وضجا بالضحك ··

ـ الى أين ؟

كان الطرف الجنوبى من البلد قد أصبح وجهة الناس ، ومناط أملهم ، وحدد المدق الترابى المتفرع من السكة الرئيسية ·· المعبر المزروع بالأقدام والأجسام والأحلام· قادهم الخبر من الطرف الشمالى والتقيا ·· فوق المدق ·· لم يصدق الأول أن يلتقى بالثانى فكثيرا ما سمع منه ما يجرح السيد ·· فهو المتعلم ، المثقف ، الذى لايرى فيما يفعله السيد الا لهوا وعبثا ، وأن ما يقوم به رجعة الى الوراء وأن الناس قد ناموا على كلامه الحلو وأصبحوا يحتضنون الآمال والأحلام ·· وهاهم ينامون على حلم جديد ، والدنيا حولهم تتغير كل يوم ·· مع أن مشاكل الناس مع العمدة ، وشيخ الخفر ، والجمعية ·· أهم بكثير مما يجرى فى البلد ·· من تصدى للعمدة وهو يضع يده على الأرض ، والجمعية ·· والغلال والقطن ! ومن واجه المدرسين وهم يخربون الأبناء ، حتى الطريق الذى أقامته الحكومة ، وسفلتته ، انتزعت أرضه من بقايا أرض الغلابة والمساكين ، ووقف أعضاء الاتحاد يتفرجون ، وراح السيد فى خطبه يدعو الناس الى التبرع بالمال والأرض لاقامة المساجد ·· كأن الأرض لا تكفى للصلاة ·· لم يسمعه يوما يدعو الى اقامة مدرسة جديدة ، أو مستوصف صغير ، أو مشغل تتعلم فيه المرأة شيئا ينفعها ··

ـ كأن الأمر لا يروقك ..

ـ نعم .. الموقف كالأسطورة ..

ـ ومع ذلك تسعى اليه ..

ـ الحدث يثير الذهن ..

ـ والناس يصنعون حدثهم بالوهم الخادع ..

ـ الكنز أصبح محور آمالهم ..

ـ أى كنز هذا الذى يبحث عنه الناس ، أى متعلم صغير يعرف أن طبقات الأرض هنا ، لا تحمل ذهبا ولا صفيحا .. المناجم معروفة أماكنها ..

ضحك الآخر وشده من يده وقال :

ـ لا تقل هذا حتى لا يغضب الناس منك ..

* * *

ركض الأطفال فى كل اتجاه ، كما ركض الرجال والنساء ، والباعة .. وبدا أن البلد قد انتقلت بقضها وقضيضها الى المساحة التى تخفى فى باطنها الكنز .. ولاحت السـعادة على الوجوه ، وأصبح مجرد السفرة الى المكان مثيرا يفجر العواطف والمشاعر فكل واحد مشغول بشىء ، يلوح له كالضوء الذى يفاجىء الظلمة ويتسلل اليها ..

.. ويدفع الحماس الخطى ، ويغص المكان بكل شىء ..

كان الناس يتجمعون حول المكان كالحشد ، واختلط الصغار والكبار والنساء ، وعلا الضجيج والصخب ، وبرز الى الساحة رجل عفى ، مسك بندقية ، ووضع اصبعه على الزناد وهو يصيح .. فى غضب ..

ـ سأفرغ الرصاص فى قلب من تسول له نفسه الاقتراب من الأرض ··

زام الخفـــراء ·· ولكنهم لم يفعلوا شـيئا ، ظلوا فى أماكنهم لا يبرحونها حسب توجيهات العمدة وشيخ الخفر ·· يحافظون على الأمن ·· ويمنعون أحدا من التقدم الى الساحة ، فظهرت مساحة الكنز خالية جرداء ·· والناس يحيطونها كالأسورة ··

همست واحدة الى الاخرى :

ـ من الرجل ؟

همست الأخرى الى من بجوارها :

ـ من الرجل ؟

همس الرجل الى من بجواره :

ـ من الرجل ؟

جاء الرد سريعا كمقذوفة ـ صاحب الأرض ··

وتردد صوت الرجل عاليا ، يهدد ·· ويطلب من الناس أن يعودوا ، ويبتعدوا عنه وعن أرضه ، وأن يرجعوا الى عقولهم ·· فالأرض أرضه ، والكنز ان كان حقيقة فهو كنزه وهو لا يريده ، انما يود أن تبقى أرضه كما هى ·· يزرعها ويفلحها فتستره وأولاده ··

علق واحد على ما سمع بأن الأرض جرداء ، مشت فيها الملوحة فلماذا يتمسك بها الآن وقد أهملها من قبل ··

شق السيد الجموع الحاشدة ، فهلل الناس وكبروا ، ارتفع الضجيج واختلطت الأصوات وزغردت النسوة · وصرخ الأطفال وانحشروا بين الركب والأجساد ·

وقف السيد امام الرجل ، فأنزل بندقيته ، وأرخى رأسه ٠٠ تقدم حتى أصبح فى سرة المكان وتطلع الى الناس فاستقبلوه بدوى من التصفيق والهتاف ، حتى كاد أن يخجل ويصيبه الحياء ٠٠ طالبوه أن يتحدث فتحدث قائلا :

ـ ان الله حين خلق الكون ، أودع سره فيه ، وطالبنا أن نبحث حتى نعثر عليه ٠ والأرض مهدها الله لنا ، نزرعها ونجنى منها الثمر والحب ٠ وأودع فى باطنها الخير كله ٠٠ وأمرنا أن نقلب التربة ٠٠ ونغوص الى القاع ٠٠ لقد أخرجت الزيت والمعادن كلها فلماذا نستكثر على أرضنا هذه أن تبوح لنا بما فى باطنها ٠٠

« والأرض مددناها ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ٠٠ »

٠٠ انها آية ، نتعلم منها ، ونتمسك بها ، ونعلم أن الله لاينسى عباده الصالحين ٠ ولقد جاءنا وعده ، فتمسكوا به ٠٠ (وفى الأرض آيات للموقنين) ٠

ودوى الهتاف عاليا ، فارتج له المكان :

ـ الذهب ٠٠ الذهب ٠٠

وعاود السيد حديثه ، والأنظار تتلهف على الرؤية كما تتلهف الأذن على السماع :

ـ أيها الأحباب ٠٠ ليكن الكنز فرصتنا ، علينا أن نغتنمها ونمضى بها الى آخر المدى ٠٠ فلنتوحد ، ولنتماسك ، ولنلفظ من بيننا كل من يشكك فى أعمالنا ، ونوايانا ، وليسع كل منا الى العمل ، العمل أيا كان أيها الأحباب هو كرامة المرء وشرفه ٠٠ والكنز يحتاج الى عمل ، الى يد واحدة ٠٠

« من سعى على عياله ليكفهم عن الناس ، فهو في سبيل الله » ٠

وعاود الهتاف يردد ــ الذهب ·· الذهب ··

وقف الرجل منتصبا وقال فى حسم :

ــ جئت بالمطلوب يا السيد ·· فأنا أسعى على عيالى ·· والأرض هى وسيلتى ·· قل لهم أن يصونوا حقوق العباد ··

ولكن الناس لم يرتحاوا الى قول الرجل ، ولا حديث السيد قد شفى ما فى صدورهم ·· لم يقل السيد ما يريدونه ، وما يسعون لتحقيقه ، فلا يعقل أن تقف أنانية واحد ضد مصلحة الجماعة ·· انبرى أحد المحتشدين قائلا :

ــ الكنز لنا ، الكنز للبلد كلها ·· المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية ··

لازال السيد فى مكانه ، والرجل يقبض على البندقية ، والآمال تطوح بالنفوس ، وتشعل الرغبات فى القلوب ، وتذهب بالعقول كل مذهب ·· كيف يقف واحد ضد الجميع ·· كيف يستأثر واحد بما يكفى الناس ويزيد ··

ــ احسم الأمر يا السيد ··

وينظر السيد الى الرجل ·· ويرنو الى الحشد المنفعل ، ويقول :

ــ الحق أقول لكم ·· ان الكنز من حق البلد جميعا ··

كم يود أن يقبض على تلك الجذوة المشتعلة ، أن يبقيها تلهب النفوس وتنفض القلوب · وتدفع الأيدى الى العمل ·· كم يتمنى أن يوجهها الوجهة الصالحة ، فتنقبض الأيدى على الفئوس وتنحنى الأصلاب فى دأب السعى والبحث ··

ورفع السيد ذراعيه عاليا وقال :

ـ ولكن الوصول الى الحلم ليس سهلا ٠٠

قاطعه الرجل فى عفوية الغضب الجائح :

ـ ولكنك ظالم يا السيد ٠٠ أنت لم تحكم بالعدل ٠٠

سحبه الخفير من يده ، وأخذ منه البندقية ، وظل يردد فى حزن مبلول :

ـ أنت لم تحكم بالعدل !!

تابع السيد حديثه فقال :

ـ كل شىء فى أوله صعب ٠٠ تحقيق الحلم صعب ٠٠ كل منا يحلم ٠٠ ولكن كيف نحقق الحلم ٠٠ أن حلمنا دونه الدم المراق ٠ اسمعوا منى وعوا ٠٠ الكنز لن يفتح بابه ، ولن يعطى خبيئته الا اذا ذبح عند مدخله طفل صغير دون الثالثة وفوق الثانية ٠٠ ويكون الذبح لحظة أن ينشق النور عن الظلام ٠٠ لابد من اراقة الدم فى سبيل تحقيق الحلم ٠٠

خبطت صـــابحة على صدرها وأخذت زوجها وابنها وتهيأوا للعودة ٠٠ لقد أنكرت أن تسمع من السيد الدعوة الى الدم ٠٠ وانفلت صاحب الأرض مرة أخرى وعاد الى الساحة ٠

ـ الى أن تأتوا بالطفل فلازلت صاحب الأرض ٠٠

شعر السيد برضى مفاجىء ٠٠ فلعل الرجل أدرك مقصده ٠

وظل الأمر موقوفا ، أياما وليالى ٠٠ واحتـــار الناس كيف يذبحون طفلا ، بل كيف يأتون به ! ٠٠

وبدا الأمر لغزا لا يتكشف ٠٠ حتى أن العمدة احتد فى وجه السيد لأنه بذلك يعطل البحث والتنقيب ، على حين أسر شيخ الخفر اليه بأنها لعبة ، كى يستأثر السيد بالكنز وحده ٠٠

ولكن الناس ، ظلوا فى سفراتهم الى الســـاحة ·· وكثرت تجمعاتهم ، هنا ·· وهناك ·· فطال السهر ، وامتد الليل حتى صياح الديكة ·· واستغل أذكياء البلد الموقف فنصبوا المقاعد وأقاموا المقاهى حول المكان ·· واعتلت لافتة باهرة تحمل « قهوة الكنز الذهبى » وفتحت أبوابها للشباب ، والرجال ·· وبعض النسوة ·· وذاع صيت الكنز فى البر كله ، فحطت القوافل بالقرب من المكان ، وأصبح موعد اعلان الكنز ، موسما ســـــنويا يلتقى فيه الناس ، يتباركون بالمكان ·· وسعد صاحب الأرض بما حدث ، وأقام نصبا فوق الأرض ·· ودخل جيبه الكثير ·· وقام بتأجير بقية الأرض لفرق الغجر التى تحل فى كثير من الأحيان ، تحمل معها فنون اللهو والعبث ·· وأصبح المكان موضعا لاقامة الأفراح ، وعقد الولائم ، وختان الأطفال ·· وعرف الفساد طريقه الى المكان فامتلأت المقاهى بالدخان والحشيش والعرض المســـتباح ·· وتلهى الناس عن الكنز ·· وانشغلوا عنه ، ولم يعد له ذكرى الا فى اللافتة التى تحمل اسمه ·· وراح السيد يدعو الناس الى العودة الى حلمهم القديم ·· ولكن الغجر كانوا قد سبقوه فطال الفساد كل شىء ·



- ١٤ -

حين رأت عليه علامات الهدوء طمأنت نفسها بأن طه عاد الى رشده وأن الله هداه ، وأعاد اليه عقله وحكمته القديمة ·· ولما لم تهب رائحة السبرتو من فمه ، حمدت الله وأثنت عليه ، فهو الذى يضفى عليها الأمان ، ويجعلها صاحبة بيت كأية امرأة فى البلد · صحيح أن البيت يخلو من كثير ولكنه بيت يحميني ويسترني · ولكنها أحست منه ابتعادا · ليس كعادته · انه يتباعد عنها ، حتى لكأنه ينفر منها ·· والنفور يصيبها فى مقتل ، خير منه أن ينطرح عليها فاقد الوعى مما يشربه ، وبرائحته المقززة ·· تلك بداية الطيران ·· وهجر العش ··

كانت تعلم أنه بدأ يرتاد جلسات السيد ، وأنه يتأخر فى بعض الأمسيات حين تطول الأمسية ، ويتواصل الذكر ·· ولكنها علمت أيضا أنه بدأ يتردد على بعض الجيران ·· وأن ألسنة الناس شرعت تتحدث ·· والعيون تنظر اليها فى تعاطف حذر ··

انتحت به جانبا قبل أن يخرج مساء وعيناها تحكمان النظر عليه ..

ـ طه .. تتجنبنى هذه الأيام كثيرا .. أفعلت شيئا يغضبك ؟

تململ فى وقفته .. فما كان يتمنى أن تفاتحه زوجته فى الأمر ..فليس سهلا ، أن يبوح لها بما نوى ، ان فيه نهايتها . هو يعلم طبعها جيدا .. تعطى حين تحس أنها المتفردة .. وتصبح كالنهر يفيض كل صباح ، والنجم يتلألأ كل وقت ، والنسمة تهب فى كل حين .. ولكنها أيضا حين يمس هذا التفرد تتحول الى لظى مستعر ، وحياة جافة مظلمة .. خشى أن تصيبها تلك الهبة النارية فتقلب الأمور ، وتكشف ما نوى عليه . وفضل أن يوحى ولا يصرح :

ـ ألا تتمنين لى الهدوء وراحة النفس ؟

ـ ما تمنيت أفضل منه ..

ـ راحة النفس فى أن يكون لى من يحمل اسمى من بعدى .

ـ وهل تأخرت ! انه عين المراد ..

كادت الدموع تطفر من عينيها لولا أنها كزت على أسنانها ، ونطقت فى صعوبة :

ـ وهل سهل على أن أحرم من الأمومة ..

ـ ولكن العمر يمر ، والأمل يفلت من يدنا ..

تمتمت فى ضعف :

ـ تلك ارادة الله ..

وتيقن أنه لن يقوى علي الصمود طويلا ، وأنه من الخير أن

يصرح لها بنيته ، وأنها قد تهب كالعاصفة ، ولكنها ستهدأ لا محالة ·· فلن تظل الى الأبد غاضبة ··

ورق صوته ، حتى بدا كالهمس فى لحظات النجوى :

ـ أنت تعرفين مكانتك عندى ··

ـ ولولا مكانتك فى قلبى ما تحملتك طيلة هذا العمر ·

ابتسم فى عذوبة ناعمة وقال :

ـ حينما أردت الزواج ما اخترت سواك ، وأنت تعرفين كم كن يبدين الرغبة ·· ويتمنين ··

ـ ولذلك وضعتك فى القلب ، وأغمضت عليك العين ·· وصبرت عليك ··

ـ ولكن التعاسة أصابتنى ·· والخروج منها معروف ··

وضغط بأسنانه على شفتيه ، وتقلصت يداه ، وقال فى سرعة :

ـ المخرج أن أتزوج ··

تجمعت كل حواسها فى عينيها ، وحدقت بكل اتساع تقدر عليه وقالت غير مصدقة :

ـ تتزوج !!

عادت تتساءل وهى ترنو اليه بمودة :

ـ تتزوج على يا طه ··

ركبه فى هذه اللحظة تصميم قوى أن ينهى الموضوع ويكشف النية ··

ـ الشرع أباح لنا ذلك ·· مثنى وثلاث ورباع ··

راقب طه زوجته وهى تتحول الى رماد بفعـــل نار تأكلها ، وقالت بصوت عليل :

ـ من أخبرك بذلك ؟

قال بلهجة حرص أن تكون مؤدبة وواشية باحترام :

ـ السـيد ··

ولمح النار تقترب ، متأججة ، وقال لنفسه ان الزواج من جديد تمرين على تجدد الحياة ·· أو الوقوع فى فخ العدم مرة أخرى ·· واحتار ماذا يفعل ، فسحب نفسه وخرج ··

·· وتراجعت المرأة ·· وكأنما طعنها بنصل حاد ·· وكادت تتهاوى ·· ودق قلبها بعنف ، فأيقظها من غفوتها ، ورأت المأساة تنذر بعاقبة وخيمة ، وببرودة تملأ الأعطاف والأعصاب ·· وتحركت فى صعوبة ، ومشت نحو الباب ·· ومدت ساقها الى الشارع ·· وتنبهت الى الكلمة الأخيرة التى نطقها ·· السيد ·· وجن جنونها ، ومشت فى البلد ، حارة حارة ، وزقاقا زقاقا ، تعلن أن السيد يحرض على الطلاق ، ويدعو الى الزواج ، وهجر الزوجات ، وأنه يفعل ذلك لعجزه عن الزواج ، وتكوين أسرة ، كخلق الله · انه وبمكيدة خبيثة يؤثر فى الرجال ، يعطيهم المال ، ويدفعهم دفعا الى تطليق نسوانهم · وهجر البيوت ، وتخريبها ·· يانسوان البلد ، يامن دفعتن للسيد كل غال ، حتى النفس والعصب ، اتحدن أمام هذا الخطر ، وقفن أمام السيد ·· واعترضن طريقه ، من يخرب البيوت ليس بصالح ، من ينفر الزوج من زوجته ، لا يستحق أن يحترم ·· بل لا يستحق أن يكون له مكان بيننا ·· أنتم يا أهل البلد ، نسيتم ·· أنفسكم ، فركبكم الغريب ·· وضل بكم الطريق ، اطردوه ، أو فليلزم داره ويغلقها عليه ·· وترنح الجسد وسقط من الاعياء ··

* * *

حين بلغه الخبر ، أغمض عينيه ، وشعر بألم يمضه فما كان يريد أن يصل الأمر الى ما وصل ، وما استطاع أن يحل تلك الضفيرة من المشاعر المختلطة ، الأبوة ، والحب ، فالحب عاطفة نبيلة ، ولكن الأبوة أقوى ، من لا يفرق بين القوتين لا يحق له أن يبدى رأيا أو يوجه أحدا الى طريق ‥ الا أن الأبوة فيه قوة كامنة ، مستترة تتخفى وسط الترتيل ، والسهر ، ومداومة الذكر ، ورؤية الأحبة ‥ وأحس بآلام تتسرب اليه فأيقن أنها مظهر من مظاهر الحياة ، ودليل عليها ، وأنها تحدث عن سعينا اللحوح لتحقيق هدف أو طموح ، أو أمل عصى ‥ واحتد وهو يحادث نفسه :

ـ ما أردت الا الاصلاح ‥

لاذ الجالسون بالصمت ، الا أن الصوت أشعرهم بوطأة ما يعانيه السيد فانبرى واحد منهم وواجه السيد قائلا :

ـ اننا نكفيك المرأة ‥

زحزح آخر جسده ، ونتر نفسه وقال :

ـ انها مجنونة والخطر منها قائم ‥

وتنهد السيد ، تنهيدة حارقة ، تألم لها الجالسون ونطق فى ذهول :

ـ لقد أنصفت وظلمت معا ‥

كيف يقع فى هذا المأزق ، ترى ماذا يقول الناس عنه الآن ! أما كفاه ما ووجه به فى الأيام الأخيرة ، من تجرؤ عليه ، واتهام له فى السعى لاحداث فتنة ، والنفس ما عادت تقوى على أن نعرضها للآلام من أجل أن نقدم القيم العليا ‥ وترطب لسانه بترديد قول الله تعالى) ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ‥) وما وقفت السحب يوما عن الركض وراء الأفق ‥ وباتت حركة الشمس والنجوم فى خاطره تحمل مغزى أبديا للتحول والبعث الدائمين ‥

والنفس فى طورها الخفى ، كغيم شفيف يحجب وجه القمر ·· ورانت منه نظرة الى أحبائه ، فاهتبلوا الفرصة وقال أحدهم :

ـ لا تعكر الصفو بحديث مجنون ··

أضاف الجنون اليك ألما جديدا ، وكأنما تنقصك الآلام ، خرجت المرأة من حدود العقل الى لا حدوده ، فجمعت بين الأضداد ، ورأت يقلبها ما يطمسه ، وجاوبت حركة الليل والنهار ، وتحررت مما يثقلها ويحرجها أمام البشر ·· لقد كنت السبب المباشر فى اختلال المرأة ، جانبك الصواب ·· وما علمت أن الأمر مصـــنوع بتراكم السنين ، وأن الهزة المفاجئة تأتى بالموت ·· وشعر بأن أنفاســـا صاعدة ، كالبخار تتصاعد من أنحائه فحدس أن المجاهدة تعطى نشوة حقيقية ، وأن النشوة تسلمك الى الروح المستتر ، فتلتذ براحة نفسية ورضى أبدى ·· ومهما كابدت فى سبيل الانزلاق الى الحياة الحقة الموعودة · فان عوائق الفعل تزيد من الألم ، وتعلى من المجاهدة ·· وتقرب من شذا الفردوس ، وتريح الجسد من آلامه ··

ورفع رأسه من اطراقته الطويلة وقال :

ـ تذكروا المرأة ، ان رأيتموها عارية فاكســوها ، جائعة فاطعموها ، ظامئة فارووها ، وسكنوا من نفسها الهائجة ·· فلقد أخطأ السيد وهو يبغى الصلاح ··

خرج من الصمت الدامغ صوت أحد المحبين :

ـ لقد أشرت عليه بما جاء فى الكتاب ··

شعر واحد بحاجة الى القول فقال :

ـ من منا يعلم الغيب ·· انه قدرها ··

يا أحباء القلوب ، لا تبرروا الخطأ ، واسألوا أنفسكم كيف تغير الناس ، أين مجالس الذكر المترعة بالأنفاس والأحبة ! أين الراجيات ، الطالبات ، الساعيات الى الراحة ! تغير الزمان ··

وانفتح المكان ، وازدحم الشارع بالفقيه ، والعالم ، والصعلوك ، تنوعت المشارب ، وتفرعت الطريق ، ولم يعد الرأى واحدا ، وتلفعت الحقيقة بألف ثوب وثوب ·· واتهم السيد بتخريب النفوس ، وتخريب البيوت معا ·· والدليل أمامكم ، تجدونه فى حنية من شارع ، منطرح الجسد ، زائغ البصر ·· قلق الفؤاد ·· وقال السيد فجأة كأنما صاد القول من سهم مارق ··

ـ ليتكم تعثرون عليها ، وتأتون بها ·· الدار واسعة ، والفضل من الله ··

ـ ان كان هذا مطلبك فستجدها الليلة عندك ··

·· الخطر يرف على النفس رفيف العصفور فى بادية قفراء ، انه خطر يحمل الموت ، والموت يفضى الى الحياة ·· انه راحتنا من العناء ، ومدخلنا الى التلاقى · وعكس الوجه ، ما يحتاج القلب ، ووشت العيون بالأشواق التى تجتاحه ، فانزلق الصدى الى النفوس وعصر القلب ، ولوى الحشا ، ثم ترقرق حزنا فى المآقى ··

ورنا الى الأتباع والأحبة وقال :

ـ اعزفوا للقلوب ، وأريحونا باللحن السماوى ··

وطفق الأداء يتردد فى الأرجاء منسابا كأنه موجة قمرية فى ليل غاطس الظلمة ·

وراح السيد يفيض بأمواج من المشاعر ، وتبدى له اللحن كأنه رحمة مهداة من الغيب ، وعاده الشعور بالرضى خارقا تراكمات الأيام ، فتهلل وهو يستقبله وقال : اللهم انعم على بحسن الخاتمة وأرحنى من تعاقب الليل والنهار · وتذوق فى خدر حقيقى كالمنشوة العبقة ما هتف به القلب فى لحظة وجد نادره · (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) ·· فاستكان ، وقد شمله رضى لذيذ ، لذة استقبال النفس لدفقة الفجر الندية ··

***

الفصــل الثالث

ـ ١ ـ

حين لمحته واقفا أمام باب الجامع بعد صلاة العصر، يرتدى جلبابا باهت اللون ، يبدو عليه القدم ، وعلى رأسه طاقية ذات لون أخضر ، قد تهرأت حوافها ، ولحم صدره يلوح من طرق الجلباب ، والوجه مستدير يميل الى الأبيض ، والعينان متسعتان ، والقوام فارع ·· أدركت أن الرجل غريب · وأنه لزم الجامع كعادة الغرباء · فالمصلون فى العصر قلة ، ولكنهم فى العشاء يزدادون ، ولايعدم الغريب أن يجد حاجته فى واحد منهم ، يقدم له الطعام والشراب ، أما المأوى فساحة الجامع تقوم بهذا الواجب ··

كان الجو حارا ، ولكن الشمس كانت قد مالت ، فخف الشعور بالضيق ، وبدأت هبات بطيئة من النسيم ، استقبلها القاعدون بترحاب ، فأحدث فيهم تيارا من الرضى · ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون ··

صادته عيناى وهو يقترب من جماعة · قد تخففت فى جلستها ،

وأسندت الظهور الى جدار الجامع ، ولاح أمامهم المكان الخالى متسعا لايحده الا شريط أخضر هو بداية الأرض المزروعة ··

ألقى عليهم التحية وجلس قريبا منهم ·· كان يميل رأسه كأنما يود أن تلتقط أذناه ما يدور حوله ·· أخرج واحد من الجماعة علبة صدئة وأشعل سيجارة ·· وقال فى ضيق خافت :

نجلس كالولايا بلا عمل ··

ضحك آخر على حين علق على قوله واحد فى طرف الجماعة :

ـ أيام قليلة ، ولانراك هنا ··

أخرج سحابة من سيجارته ··

ـ وبعد أن ينتهى الحصاد ··

علق الضاحك ساخرا :

ـ نجلس لنلعب السيجة

ـ والله أنت رائق المزاج اليوم ··

لاصق الغريب طرف الجماعة حتى أكمل الصف فتنبه اليه جاره وقال :

ـ الأخ من البلد !

دارت الرءوس ، وتركزت الأبصار عليه ··

كان يجلس القرفصاء ، وساعداه مستقران على ركبتيه ، وأصابعه مفرودة ، وزاغت عيناه ، وصوبهما الى البعيد ·

تمتم واحد وهو يدير رأسه فى لامبالاة :

ـ ما أكثر الغرباء فى البلد · !

دفس واحد ثوبه فى حجره وقال :

ـ اننا فى حاجة الى من يعطينا

ـ ولكنه الواجب ، اسأل الغريب ان كان يحتاج شيئا ··

ـ فلننتظر الى العشاء ، فسيكون هناك ، الشيخ ، والمأذون والحاج وغيرهم ··

ـ قد يكون الغريب جائعا

وتلفظ الغريب لأول مرة ، وقام وجلس أمامهم

ـ انما الغريب ، هو الشيطان ·· والأرض أرض الله

والله يقول « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ·· »

ضحك واحد ، وقال ساخرا :

ـ ولكن بلدتنا ليس لها مناكب

وضحكت الجماعة ·· فاهتززت فى داخلى ، وساورنى الشك من ضحكهم ، وقلت فى نفسى ، لعل الغريب صاحب نكتة ، ألقى عليهم واحدة سعدوا بها ·· ولكن ما طبيعة النكتة ، انهم يسخرون من طوب الأرض ، حتى العمدة ، لم يسلم من لسانهم ·· واقتربت منهم ، فاعتدلوا ، وسلمت عليهم واقفا ·· ردوا السـلام ·· فى اقتضاب وعادوا الى الثرثرة · وكان هو لايزال يجلس فى مواجهتهم وكأنما قد نسوه · فليس جديدا ، أن يروا غرباء ، أو مسافرين ، أو شحاذين يحطون بالبلد ، يوما أو اثنين ثم يرحلون ·· ليس هناك شخص غير مرغوب فيه كمن يقوم بمهام الأمن ·· بالرغم من قرابتهم ومعرفة البلد بهم ·· حتى الاحترام ان وجد يلبس ثوب الريبة والشك · مع أننى أفلح مثلهم ، وأزيد عليهم المحافظة على الأمن ·· والعبء فوق الطاقة ، ولكن لأن منهم اللص ، والحرامى ، وقاطع الزرع ، وناهب المال ، فلا أعدم أن اكتسب عداوتهم وعداوة أسرهم ·· ولكن العمل ·· عمل ·· والمسئولية لاتفرق بين قريب وغريب ··

ونظرت الى الغريب ، كان يتفحصهم بعينيه ويركز على المآقى المترجرجة بماء الضحك وبهمس الكلام · وقال فى بطء :

ـ انما النجوى من الشيطان ··

رمقته الجماعة ، فانتهز الفرصة وواصل حديثه ·· وقال :

ـ من كف لسانه عن أعراض الناس أقاله الله من عثرته يوم القيامة ·

كان وقع الكلام على رءوس القوم عجيبا ، فقد طأطأوا رءوسهم ولووا رقابهم مع أنهم سمعوه كثيرا فى الجامع ، وفى خطب المآتم · ولكن الصوت كان نديا والعين نافذة ، كأنما سيال ينفذ اليهم مباشرة وأنا أقف أنظر اليهم لعلهم يفهمون المراد فما أكثر ما تقولوا ··

فى العام الماضى الصقوا بى تهمة التواطؤ ·· كان العمدة ، يجهز البلد لانتخابات جديدة على البلاد ·· كان الاتحاد هو المظهر الوحيد الذى يسود القطر كله ، وتصور الناس أنهم يدخلون لعبة جديدة ، طالت رءوسهم جميعا حتى كادوا يناطحون بعضهم البعض ·· ووقف الرعاع يتصدرون ، رشحوا أنفسهم أمام العمدة والأستاذ ، والموظف ، وناظر المدرسة اليتيمة ·· قال لهم العمدة

ـ ولكنكم لاتقرأون ولا تكتبون

ردوا عليه فى مباهاة حقيقية :

ـ ولكننا أصحاب الحق ·· الأصليين ··

زجرتهم فى شدة قائلا فى غضب :

ـ احفظوا المقام ، فالعين لاتعلو على الحاجب ··

ـ فى زماننا ، علت ، ومشت المياه فى العالى ··

ان لنا نصف مالكم ..

وقال العمدة

ـ ليست غنيمة نقتسمها

ـ لقد تساوت الرءوس ياعمدة

انفجرت غاضبا فيهم ، واحتد صوتى فلاح كالصراخ ..

ـ اخرسوا ياأوباش ..

ظهرت نتيجة الانتخابات ، كان العمدة هو الأمين ، والناظر هو الأمين المساعد .. وأعضاء الاتحاد الخمسة توزعوا بين الأستاذ ، والشيخ ، والتاجر .. وصاحب الارض الواسعة ، وخفير الدرك ..

من يومها وهم يرون أننا لا نريد لهم أن يتنسموا الريح الجديدة .. وكثيرا ما كانوا يقولون .. اختاروا ، ونحن نوقع .. علام يوقعون هؤلاء الجهلة ..

جاءنى واحد منهم وما أكثرهم فى البلد

ـ لقد طبخت الطبخة

جاريته فى الكلام

ـ ولمصلحة من ؟

ـ لك ، وللعمدة ، ولكل واحد غنى

كدت أقطع لسانه من « لغلوغه »

ـ بلدنا فى اليم كله ، ليس فيها غنى بالمعنى المفهوم

ـ انهم أغنياء بالنسبة لنا ..

قال آخر وهو يمشى وراء حمارته التى اثقلها بروث البهائم فى عصر يوم :

ـ كنت أطمع أن أكون ممثلا لهم

وأشار الى حمارته ، فضحكت وضحك واقتربت منه وقلت :

ـ ألست غاضبا !

مسك ذيل الحمارة ، وكبس لبدته ، وقدماه الحافيتان تدبان فى قوة ، وقال :

ـ يروحون ، ويجيئون ، ونحن كما نحن

زايلتنى الضحكة ·· وأنا اكتم فى سرى اعجابا خاصا به ·· مصحوبا بألم حقيقى · ظل الغريب على جلسته أمام الجماعة ·· وهو يردد على مسامعهم قوله :

ـ اعلموا أن الصبر من الأمور كالرأس من الجسد ··

واذا فارق الرأس الجسد ، فسد الجسد ·· واذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور ·· اصبروا وصابروا ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ··

رد واحد فى حمق باد ، واستهزاء تعود عليه :

ـ الأمر وما فيه ، ان الأمر عسير ، وما باليد حيلة ·· والعيال أفواههم مفتوحة لاتنقفل ·· على حين يتنعم الغير باللحم والمرق ··

ونظر الرجل الى مليا ، وكأنما ينتظر ردا على كلامه ، تجاهلته وصوبت نظرى الى الغريب ، ولكنه واصل حمقه وقال :

ـ أليس كذلك ياشيخ الخفر ! ·

ما الذى يريده الرجل ! أى لحم ، وأى مرق ؟ ـ وهل تعرف البلد اللحم الا فى المواسم : والأعياد ! ‥ انهم يتصورون أننـا ببنادقنا ، ولبدنا المختومة بقطعة النحاس ، من جنس آخر ، ولايدرون أن الهم واحد ‥

لم يترك الغريب للرجل فرصة لمتابعة حديثه فقال وهو يضغط على الكلام :

ـ ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره ‥

عن المصطفى الحبيب أنه قال عن يوم القيامة ‥ ومايـــوم القيامة ببعيد يا اخوان ‥ قال :

وصمت الغريب ، شوق الجماعة فصمتوا ، فحديث الرســول يأخذ الألباب ، وذكر يوم القيامة يرقق القلوب بالرغم مما يسمعونه يوم الجمعة فى الخطبة ، ولكنهم قوم ينسون

ـ صلوا على الحبيب المصطفى

علا الصوت مرددا الصلاة على سيدنا محمد وآله ‥ فشـد أسماع البعض المارين ، فتوقفوا وتحلقوا حول الجماعة ، ووراء الغريب ، وأمامى ، كان الجميع صامتا منتبها

ـ قال الحبيب : يؤتى بأشد أهل الدنيا بلاء فيغمس فى الجنة غمسة ‥ يعنى يدخل فيها ساعة ٠ فيخرج كأنه القمر ليلة البدر ٠ فيقال له : هل مر بك شدة قط ، فيقول : لا لم أزل فى هذا النعيـم منذ خلقتنى ٠

اقتدوا بنبيكم أيها الأحباب واصبروا ، واحفظوا ألسنتكم الا من الخير ‥

كان الجمع القاعد والواقف ماخوذا بكلام الرجـــل ، وكان ماأخذهم فى الحقيقة ، طريقة الرجل فى سرد الكلام ، وامساك اذهانهم بما يحكيه من حكايات ·· حتى بدا فى نظرهم شيئا كبيرا ، وأن قلبه صاف يسع الناس ، دافىء يرطب القلوب ··

اعتدل واحد من الجماعة وقال فى رقة

ـ الشيخ الطيب ·· من أين قدم ؟· وممن تعلم هذا العلم ؟ ·

طاف الغريب برأسه فدارت عيناه فى الجمع كله ، حتى حطت على وجهى واستكن قليلا ثم قال :

ـ أما عن العلم فقد أخذته عن شيخ لى ضرير ، كان يعمل بالجامع · علمنى ، وأقرأنى ، وأنار لى بصيرتى ·· وقدمت من بلد ، الآباء فيها مجهولون ، والأمهات مغلوبات على أمرهن ، والأبناء ضائعون ·· والرزق شحيح ، والقلوب مطموسة ··

نطق الجميع مرة واحدة ·· وفى صوت يشى بالشفق

ـ أعوذ بالله من بلد ، الآباء فيها مجهولون

أمال واحد من الواقفين رأسه وقال :

ـ أية بلد هذه ! ماسمعنا عن بلد بهذا الوصف ··

ولكن الرجل اعتدل ، عاود سؤاله فقال :

ـ لكن ماذا علمك أيضا هذا الضرير ··

قال الغريب فى تؤدة وهو ينظر الى ··

ـ علمنى أن أبحث عن الحقيقة

ـ الحقيقة !

عاد الساخر الى ضحكه وتساءل فى هزء :

ـ ووجدت الحقيقة هنا ؟!

ـ انما هى محطة من محطات السفر ··

كانت ذرة الغريب هادئة ، تترك أثرها فى النفوس كأنها السحر · وفى الحقيقة فقد جذبنى القول · ولكن عقلى لم يسترح له ·· فقررت أن أعرف من هو ؟ ·· أية حقيقة تلك التى يريد أن يبحث عنها ؟! وظللت أتابعه ما استطعت ·· كنت أراه فى زوايا البلد ·· فضلا عن جامعها الكبير · كان يقف أمام الزاوية ، يتحدث مع الناس ، ويجلس معهم ·· حتى آنسه القوم ·· ثم وجدته يمد عمله ، الى الأزقة والحوارى ، يجلس على المصطبة مع الناس ، يسهرون ويتحدثون ويشربون الشاى ، والقوم مستمتعون بما يقول · وأصبح من الصعب أن أضع عينى عليه باستمرار ، فلقد تعددت خطواته ، وتنوعت أماكنه ، وأصبح مطلوبا من الناس ، وتعود الناس أن يروه صباح كل يوم يقرأ الفاتحة ، ثم يمضى فأضاف بفعله هذا أثرا جديدا مشى الى النفوس كأنه السحر ، مما زاد فى مكانته عندهم ، فاستبشروا به ··

نقلت خبر السيد هكذا كان اسمه ، الى العمدة ·

فقال العمدة ببصيرة نافذة ··

ـ لايخشى منه ··

قلت للعمدة وأنا حذر بطبعى ، فما يحدث هذه الأيام لا يجعل الانسان يطمئن الى أحد

ـ ألا يكون قد عمل عملة وجاء يتستر هنا ··

ـ هل رأيت عليه عيبا ؟

ـ الحقيقة ·· لم أر

ـ أهو فعلا يحفظ القرآن ويتحدث بالحديث ٠ ؟

ـ هكذا فهمت ٠٠

ـ اذن ٠٠ دعه فى حاله ٠٠ مادام الناس انشـــغلوا به ، ولا يخشى منه ٠

الى أن رأيته فى ســـاعة متأخرة من الليل يمرق الى بيت صـــابحة ، فراعنى الأمر ٠٠ فالبنت معروف سلوكها بعد عملتها الشنيعة ، وانجابها من الحرام ٠٠ ومنذ أن تغيرت معاملة الناس لها ، قررت أن تنتقم ففتحت دارها ٠٠ لمن يريد السهر والمتعة ٠٠ الحقيقة أن البنت طازجة ، وسبحان الله ، فلها جسد ليس لواحدة فى البلد ، رغم الفقر والعوز ٠٠ رفست الباب برجلى ودخلت ، كانت خارجة لتوها من الحمام ، والثوب يكاد يلتصق بها ٠٠ وشـــعرها المبلول جدائل تتلوى على العنق والصدر ، وكان الولـــد غافيا ، والكلب يقبع بوحشية فى ركن الدار ٠٠ لمحـــت فى عينى غضـــبا فقالت ٠٠

ـ مالـك ٠٠

اقتربت منها ، ووضعت يدى على كتفيها ، ثم مسكت خصلات من الشعر وظللت ألويها وهى تعدل من شعرها فى لامبالاة ٠٠ هذا الجسد قد زاره السيد ، وهو الذى يتحدث بالكلام الندى فيسحر الناس ٠٠ وها هو الفعل الخبيىء يظهر أمام عينى فى ليلة متأخرة ٠٠ تركتها وقد طلبت منها أن تصنع شايا ، وتعد الجوزة ٠

جففت شعرها ثم عقصته الى الخلف ومضت الى عملها ٠٠

حين صبت الشاى كانت عيناى تحطان عليها ، والحقيقة أننى فقدت الرغبة فيها هذه الليلة ، فما ظهر لى صدمنى ٠٠ انحنت تنفخ فى الحجر المشتعل بالجمر وهى تردد :

ـ لست الليلة كعادتك ..

تناولت بوصة الجوزة وبدأت أسحب الدخان .. وقلت وأنا اتفحصها :

ـ لقد رأيت السيد يدخل عندك فى ساعة متأخرة الليلة الماضية

ـ وهذا ما أغضبك !

طرأ على ذهنى أنها ربما تؤول الأمر على أنه غيرة ، فأسرعت وقلت :

ـ أن يدخل السيد عندك ليس له غير مفهوم واحد ..

هذه البنت الطازجة حين تتنمر تصبح متوحشة وتتحول ملامحها الى شهوة معقودة ..

ـ ليس السيد الذى يفعل ذلك ..

ـ أليس رجلا . !

قالت قليلة الحياء فى حسم مصحوب بغل واضح .

ـ انه سيد الرجال .. لكنه لم يقربنى ، ولم أر فى عينه يوما ما أراه فى عيونكم ، حمانى حين نفرتم منى .. وكتب ابنى باسمه وهو ليس أباه

اندهشت من الأمر ، وظهر لى عمل جليل قد قام به السيد دون أن ندرى وأضاف به جديدا الى ما نسمع .. وقلت فى عجب حقيقى :

ـ لم يخبرنى حلاق الصحة ..

وتلذذت بطعم الشاى المخلوط بأعواد الريحان . وحين لمحت فى عينى رضى طارئا أسرعت مبتهجة وقالت :

ـ السيد يحبه بالريحان

اغتظت فى داخلى وقلت مؤنبا :

ـ ولكننى أحبه بالنعناع

وتلذذت بطعم الشاى وظللت استحلبه فى فمى كالحلوى

ـ ولكنه الآن يعيش فى الدار البعيدة وهى ليست داره ··

نظرت الى وهى تنفخ الحجر لتزيده اشتعالا

ـ أنت شيخ الخفر وتعرف كل شىء ··

كانت رائحة الريحان تعطر المكان ، وتبعث فى النفس الراحة والمتعـة ··

ـ الدار كانت لرجل غريب يمت بصلة بعيدة الى البلد ··

تنبهت صابحة ، وحشـدت كل انفعـالاتها ·· مما أثارنـى وأدهشنى

ـ الدار ملك له !

ـ نعم ، فقد كان أحد أقربائه البعيدين يمتلكها ، وكان مثله · لايراه أحد الا فى النادر ·· والناس تعودوا على ذلك ولم يعودوا يسألون ·· جاءها كبيرا ، وهى مقفولة دائما ، وتخيف لقربها من المقابـر ··

وتفرست فى ملامحها ·· كانت تشى برضى نفسى مباغت ، فأردت أن أفهمها · أن كثيرا مما حدث فى الدار أعرف خبـاياه وأسراره فقلت :

ـ وفيها ولدت ياصابحة ·· هذا الطفل مجهول الأب

واحتدت صابحة ، وكادت تبكى

ـ لاتقل عنه ذلك ·· انما أبوه السيد ··

ولكن السيد لم يعد هذا الغريب الذى كان زائغ العين ، بـــل أصبح واحدا من البلد ·· وكل يوم تتأكد منزلته بين الناس ··

جاءنى يوما جزار الناحية ·· وهو ليس جزارا بالمعنى الحقيقى فهو يعمل فراشا فى الجمعية الزراعية الخاصة بالبلد ·· ولكنه أخذ المهنة عن أبيه ، ظلت عنده أدوات الذبح والنفخ والسلخ والقطع ، حتى ضاقت به الحال ، ككل من يضيق به الحال فى زماننا هذا ·· فقرر أن يستفيد ، فعزم على أن يمارس المهنة يوم الجمعة من كـل أسبوع ·· ووجوده فى الجمعية يسهل له أمورا كثيرة ، كشـــراء العلف ، أو اقتراض سلفة الى حين ، أو غيرها مما يحدث فى دهاليز الجمعيات ·

كان غاضبا ومرعوبا ·· كنا قد صلينا العشاء وآن وقت تناول الطعام ·· فأدركنى وقد انتهيت والشاى لم يشرب بعد ·· لمحت فى يده ورقة لحم ملفوفة فأدركت مافيها ·· وصببت له الشاى ·· ولكنه بعد أن وضع اللفة قال فى حدة ··

ـ لن أشرب شايك حتى تحمينى من السيد

شدنى الكلام ، ورجفة الملامح ، ومـــددت يدى فتحســـست أصابعى اللغة فقال سريعا وابتسامة تزهو بها شفتاه الغليظتان ··

ـ لحم الزند لايعلى عليه ··

ـ اشرب الشاى وقل ··

كان الصباح نديا ، وقطع العجل تزهـــو كألق الفجر محمرة

حمرة الشمس فى الشفق ·· وكانت تدعو الآكلين الذين يفهمون فى اللحم ونوعه ·· ولم يبق الا أن يتقدم الزبائن فيشتروا مايحلو لهم ·

جاء الأستاذ كعادته كل يوم جمعة ·· وأمـــام المحل كانت وقفته · بش له الجزار ، وضحك ضحكته المعهودة كلما يراه ·· فهو يدرس لابنه ، وهو رجل يفهم فى اللحم ويحبه · بادره الجزار قائلا فى تودد :

ـ العجل اليوم ، لبانى وستدعو لى

ـ اذن ·· كالعادة ·· اعطنى كيلوين من الموزة والعرق ·· ولاتنس المواسير ، وبعض «الحلويات» ··

وبدأ الجزار فى نزع قطع اللحم ، ولفها ، وتكسير العظـــم ، ووضع قطع من الكبد والكلوة ·· ثم نظر اليه وهو يضع خصية العجل فى تؤدة مقصودة ··

ـ وهذه من أجل المزاج ، وحتى تهتم بالولد ··

وهما يضحكان ويتغامزان صادت عينه رجلا يقف على مسافة قريبة ، وعيناه لاتكفان عن التحديق فى اللحم ·· رمقه فبدت له حركة العين تصاحب حركة السكين وحركة اليد ·· وتقدم الرجل مذعورا وهو يرى كتل اللحم ·· كان وجوده بالنسبة للجزار غريبا ، فلم يره يوما ما قد قصده لشراء لحم أو عظم ، أو حتى مصارين ·· مما أثار فيه الريبة · تردد الرجل ، وهو ينظر الى الجزار ، ثم الى الأستاذ فاللحم وقال فى صوت خفيض كأنما يود ألا يتحدث :

ـ نصف كيلو لحمة ياعم أحمد وأكثر من الدهن ··

تنبه الأستاذ له ، ووقف الجزار ساكنا ، وهازئا ، وهو يردد ·· أكثر من الدهن ·· مشت السكين على اللحم والدهن ولف لــه

الورقة وأعطاها له وانشغل مع الأستاذ فى حساب ما أخذه ، • كان الرجل يتسحب الهوينى حتى كاد يختفى فتنبه له الجزار •• ونادى عليه . فجرى الرجل ، • رمح وراءه الجزار حتى أمسك به واقتاده الى المحل •• تجمع الناس فى حشد والجزار يصرخ والرجل يمسك باللفة وقد تقلصت يداه • وانقبضتا حتى اعتصرتا اللفة عصرا • طالبه الجزار بالثمن فترقرقت عيناه بالدمع ولم يسقط :

ـ لو كان معى ماحدث الذى حدث ••

وبغلظة شديدة صرخ الجزار فى صوت مشروخ :

ـ اذن اترك اللفة وامش ••

واحتشدت فى نفس الرجل قوى مجهولة ، فقال فى حسم واضح وهو يكز على أسنانه ويجرشها ••

ـ لن أتركها ولو على رقبتى ••

مسك الجزار سكينه مهددا ، فحجزه الأستاذ وانثنى يقول للرجل :

ـ لاشىء من غير ثمن ••

صرخ الرجل فى وجه الأستاذ صرخة تحمل عذابا وقهرا فأرجف الكل :

ـ من نصف عام والأولاد يطالبوننى بلحم ولقد وعدتهم الليلة الماضية به •• وهذا هو الوعد السادس لهم •• ولن أرجع الى الدار بدونه •• أنا أو اللحمة ••

•• وفجأة شق الجمع الرجل الفارع •• كان السيد يرى الموقف من بعيد • فهما له الأمر وأوجعه • ووقف أمام الجزار ، ومد

يده ، وبجذبة واحدة خلع الكتف كله كأنما يده ســـكين وقال فى غضب مشفوع بنظرات اشفاق وترحم :

ـ هذا عطاء الله له ..

ذهل الجميع ، وغاص قلب الجزار ، وقال فى أسى ذليل :

ـ ولكن هذا اغتصاب ياسيد

كيف جرؤ الرجل أن يتلفظ بهذه العبارة أمام السيد .. وضع السكين جانبا ورنا الى الأستاذ الذى لاذ بصمت غريب ، ولاح على الجمع سكون مشبع بالحذر . فقد هالهم أن ينزع الســـيد كتف العجل مرة واحدة ، ويضعه على كتف الرجل .. الذى وقف محتارا لا يدرى ماذا يفعل به ؟ كان يتمنى أن يحصل على نصف كيلو فجاءه الكتف الذى ناء بحمله !

تقدم الأستاذ من السيد وهمس اليه وقال :

ـ الأمر بهذه الصورة يعتبر اغتصابا لحقوق الناس .. واذا كان الجزار قد عجز عن مواجهتك ، فليس خوفا منك وانما احترام لك . .وأنت أدرى بالحديث ما أخذ بسيف الحياء فهو باطل .

لم يقو السيد على سماع ما قاله الأستاذ ، فعلا صوته ، وواجه الناس جميعا :

ـ يقول المربى أن مافعلته اغتصاب للحقوق .. وهو لم يرحم هذا المسكين وهو يراه يتلمظ ، ويتقطع قلبه ، وتلهث أنفاســـه .. الأفندى يشترى اللحم كل أسبوع ، ويفتخر بذلك أمام رجل لم يأكل لحما من ستة أشهر .. لم يراع مشاعر الرجل .. كيف يطاوعك قلبك أن تنام وجارك جائع .. أين ذهب ضميرك والحاجة تذل النفس وتسحق الآدمية .. ماذا يضيرك لو دفعت له ثمن اللحم . ! هل هذا

كثير عليك ‥ وهل سيف الحياء وقف هنا ، ولم يقف وأنت تفرض على الأولاد أن يأخذوا عندك دروسا خصوصية ‥ حتى تحول بيتك الى مدرسة أخرى ‥

وتوقف السيد ونظر الى الناس ، ثم مضى يضع يده على الأكتاف ويلمس الوجوه ، ويحدق فى العيون ، ويطوف بهم جميعا حتى خيل الى الناس أنه قد دخل فى حالة وجد ، وأنه يتلمس منهم المساعدة ‥ فهو كلما كان يحزبه أمر يجتمع بأحبائه ، ويتمسح بهم ويتودد اليهم · ويفيض منه ود شفيف يسيل حتى يطول القلوب فيرويها ويربطها ، ويسير بالنبض الى مداه ‥ كان داخلا فى مجال شعورى ينضح بوجد حقيقى ، الملامح مشى عليها انفعال يعصرها ‥ والشفاة ترتعش بتمتمات لاتبين ، والعينان ذاهلتان ، قد كفتا عن التحديق ‥ الوجود كعدمه ‥ الزحام وحدة ، والحشد فراغ ‥ لا اللحم ولا الرجل ، ولا السكين ‥ لاشىء يحمل معنى أو قيمة مادام الطريق بعيدا ، والانحراف طاغيا ، والجنوح مشى بين الناس وغلبهم على أمرهم حتى قسا القلب وتحجر ‥

ـ لقد تفجرت المياه من الحجر الصلد ‥ وظل قلب الأستاذ متحجرا لا ينفطر ‥ كيف نثق فيه ! وكيف نعطيه أمانة أطفال يعلمهم ويربيهم ! ثم تجأرون بالشكوى من الأبناء ‥ انهم زرع له · ! قولوا لى ‥ من لا ينفطر قلبه أمام هذا المنظر المفجع ؟

شعر الأستاذ بضآلة ، فانكمش ومضى الى جدار البيت واستند اليه ، ظل ينظر الى الناس لعل أحدا يتكلم ، فيدافع عنه ، أو يرد عنه هجوم السيد ‥ ولكن الناس كانوا مذهولين كعادتهم عندما يتواجدون مع السيد · كأن الرجل يسحرهم ، أو يعمل لهم عملا يوقعهم فى محبته · لقد ترك الجزار ، أصل الحكاية ومضى يشهر

بالأستاذ ·· اذن فليتوقعوا تأديبا للأبناء ، وتأنيبا للآباء · حينما يفيقون من سحرهم ·· وأحس بأنه لو ظل على ضآلته هذه وانكماشه وهو المدرس فلن يكون له اعتبار ، ولن يقوى على مواجهة أحد بعد ذلك ·· فمن لايواجه السيد لاتكتب له شهادة وجود حقيقية · فهو لا يقيم الحياة على مزاجه ، ولايفرض قانونا جديدا على البلد · وهو لم يأت ليغير من طبيعة البلد · وماتعودت عليه ، وما استقرت عليه الأمور ·· لو تركت الأمور له فيأخذ من هذا ويعطى ذاك ، بقوة العصا الغليظة ، فان ذلك مدعاة للفساد ، وقلب للحقائق وأوضاع الناس ·· والسكوت على الأمر خيانة كبيرة · مهما علا صوته ، وامتد جبروته فلن يظل الناس مسحورين به الى الأبد ·

وأخذته جذوة انفعال طارىء وهو يقنع نفسه بأن الاقدام على مواجهته أمر ضرورى ، وربما تكون هذه الفرصة هى المجال لابراز ذاته التى سحقها السيد ·· فواجه الجمع قائلا

ـ صحيح أننى أشترى اللحم كل أسبوع ، ولكن ذلك من عملى ·· وما ذهبت الى أحد وانتزعت منه مالاحق لى فيه ، ·· وما توددت الى أحد ·· ليأتى بابنه ، وما وضعت الزعفران ، فى القهوة ، وما ترددت على بيت مشبوه ·· وما كنت مجهولا ، لاوطن له ··

زام الناس ، وتطاير الغضب منهم ، شعروا بالضيق من كلام الأستاذ ·· فعلا صوتهم زاجرا ، وارتفع صـــوته منددا ، فاختلطت الأصوات ، وانبهم المعنى ولم يعد للموقف قيمة ·· حتى رفع السيد يده ، فكف الجميع ، وسكن الضجيج ·· والتوت الأعناق وأرهفت الأســماع ··

ـ أيها الأحباب · الرسول صلوات الله عليه ، أمرنا برعاية الجار كل واحد منا جار لأخيه · يقول الحبيب المصطفى · ان الجار

يتعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول يارب ، وسعت على أخى هذا ، وقترت على ، أمسى جائعا ويمسى هذا شبعان فسله : لم أغلق بابه دونى ، وحرمنى ما قد وسعت عليه ؟ ··

· ·أيها الأحباب · من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ··

أيها الأحباب الحقوق محفوظة ·· ولكن من يعطـــى الحقوق لهؤلاء المساكين ؟ من يعطيهم حقهم فى كسوة ، ومأكل ومشرب ·· هل كثير على الأستاذ أن يطعم الرجل اللحم ، وهل كثير على الجزار أن يتنازل عن ثمن نصف كيلو من اللحم ·· وهو الذى يأكل منها وأولاده مالذ وطاب ·· أيها الأحباب ··

واتته القوة هذه المرة ، فرفع رأسه ، وقاطع السيد :

ــ المساكين يملأون البلد ، فلو تنازلت عن الثمن لكل واحد ·· لافتقرت تماما وأصبحت أكثر منهم مسكنة ، والله لا يريد الظلم . وهذا ظلم ··

والله ياشـــيخ الخفر لم اتفوه بأكثر من ذلك ·· حتى وجدت الناس قد تزاحموا ، يريدوننى بسوء ، والسيد يحجزهـم عنى ·· ويبعد أذاهم ·· لقد وصل الأمر بهم أن طالبوا بلحم ·· العجل كله ، والى الأجل ، انتهزوها فرصة ، وكل واحد طلب شراء لحم يسدد ثمنه وقت الحصاد وهم ينظرون الى فى غل ، أنا صاحب اللحم ·· وينظرون الى الســـــيد فى فرح ، وهو الذى يبيع لهم الكلام لأن الأمر فى النهاية لاينصلح بهذه الطريقة ، والبلد فيها حكومة ، تحافظ على الحقوق كما تحافظ على الأمن ·· ولكنه فى الحقيقة لم يرتض هذا الموقف ، ومن يرتضى أن تنهب الحقوق هكذا جهارا ــ طلب منهم أن يمضوا فمضوا جميعا وهو وراءهم ··

.. واعتدلت فى جلستى وأنا أرى الرجل قد حل به حـــزن غويط ، وفرائصه ترتعد من الغيظ ، حتى كاد كوب الشاى يســقط من يده أكثر من مرة ..

ـ وذهب الرجل بكتف العجل كله !!

ـ ذهب به مرة واحدة وخلف حسرة فى القلب ..

ونظر الى فى ذلة حقيقية ، وهو يتوقع منى المســاندة ، وأن أوقف هذا المد الزاحف نحوه

ـ من يضمن ياشيخ الخفر ألا يحدث ذلك صباح كل جمعة

وذهبت الى العمدة ، فالأمر خطير لا يسكت عليه .

كان العمدة جالسا فى الدار مع بعض رجالات البلد ، كانت الانتخابات على الأبواب .. والاجتماعات لاتنفض ، وكانوا جميعا يرسمون الخطط التى تجعلهم يظلون فى أماكنهم دون تغيير ، فلقد وصلت قدرتهم الى الحد الذى أصبحت فيه البلد فى قبضة اليد ، فالجمعية تحت اشرافهم ، وتجارة المحاصـيل لاتخرج عنهـم ، ولاجتماعات مع كبار البندر والمدينة تتوالى ، والمال كثر فى الأيدى ولم يعرف أحد ممن جاء والى أين !! بعد أن انفض اللقاء انتحيت به وقلت له ماحدث .. وأنا اتميز غيظا ولكن العمدة واجه الأمـر بسهولة لم أتعودها فيه وقال :

ـ لايجب أن يكون السيد أكثر خيرا منا ..

صكت العبارة مسمعى ولم أدر ماذا يخبىء الرجل ..

ـ أبلغ الجزار ، أن يعطى الرجل كل يوم جمعة نصف الكيلو من اللحم الذى يريده وأنا أتكفل بالثمن ..

ـ سيعرف الآخرون وسيطالبونه بأنصاف لاعدد لها ··

ـ عليه أن يميز ويختار ·· لاتنـــس أن الانتخابات قريبة ، ونحن قد نحتاج الى السيد ·· بل وقوفه معنا مؤكد ·· وظهوره في اجتماعاتنا ايذان بالتوفيق والنجاح ··

وضحك العمدة ضحكة طويلة وقال :

ـ عيبك أنك لاتنظر الى القادم من الأيام ··

·· وتركت العمدة وأنا حزين · ونفضت يدى من أمر السيد ، الذى طالت قامته ، وذاع صيته ، وكثر أتباعه ، وتعددت سفراته ، وأصبح ذكره فى كل مجلس وعلى كل مائدة ·· حتى ذاع موضوع الكنز ·· فشملت البلد حركة جياشة ورأيته متصدرا المكان كله ، يوزع الأماني والأحلام ، وعاشت البلد أحلى أيامها فى وهم عظيم · وراحت الآمال تطوح بالنفوس فى كل اتجاه ، وانفلتت المشاعر ··· تتحدث بكل الرغبات الموءودة ، وفجأة انحسرت الموجة عن شاطىء أملس ملىء بالقواقع والاصداف ·· فغاب عن الناس ، ولم أعد أراه الا لماما ·· حتى أخبرنى الخادم بموته ، كانت الفجيعة كبيرة ، فلقد كان برغم كل شىء ـ كبيرا فى نفسه ·· مهيب الطلعة ، مخلصا فيما يقول ··

وخرجت ككل الذين خرجوا للمشاركة فى جنازته ··

أثارنى وأنا ماض فى طريقى الى الجامع امرأة فقـــيرة ، مهلهلة الثياب ، تبكى فى حدة ، وانفعال حقيقى ·· حتى خلت أن أمرا لحق بها ·· فلا يعقل أن تبكى بهذا القدر المؤلم على رجل غريب عن البلد كالسيد ·· اقتربت منها وهو تولول ، فحـــز فى نفسى منظرها ، ففى وقت الهول الكبير قد تضيع أحزان صـــغيرة ، ربما تكون عند أصحابها أشد هولا ··

ـ مالك يا امرأة تولولين ٠٠ ؟!

رفعت رأسها تجاه الصوت فراعنى وجهها المتعب ، وعيناها المغمضتان ، كان خيط الدموع موصولا ٠٠ أعدت السؤال ، فخفقت عيناها وأظهرتا بياضا يأكل العين ٠٠ فأدركت أنها لاترى وان رأت فرؤية شحيحة ، قد لاتفى بالحاجة ٠٠ أعدت السؤال بغيظ فردت هى تنهنه :

ـ من أنت ؟

ـ شيخ الخفر ٠٠

لملمت ثوبها المهترىء ، وأدارت ظهرها ٠٠ لى ٠ بدا لى أنها تأخذ منى موقفا ما ، وبالرغم من أن الأمر مضحك الا أننى وددت لو أعرف من هذه المرأة ، قلت متوددا ٠

ـ أتحتاجين الى شىء ٠ ؟

ضربت صدرها بكفيها فى صدق حزين وتمتمت :

ـ رحل الذى كنا نقصده

تفرست فى ملامحها وقلت متابعا :

ـ مادام قد رحل فلم تجلسين ؟

ـ أتنعم منه بزاد أخير ، قبل الوداع ٠٠

اغتظت فى الحقيقة ، وقلت محتدا :

ـ من تقصـدين ؟

تجاهلتنى المرأة ، وكأننى لاشىء بالنسبة لها ، وأنا شيخ الخفر وهى العمياء العمشاء وظلت تردد فى ولولة تقطع النفس وتوجع القلب :

ـ من للفقراء بعدك يا السيد

أثارتني ولولتها ، وهذا الندب ، وذلك التعظيم الذى لم ينله أحد ، فلكزتها بعصاى وقلت لها فى غضب جامح :

ـ فزى من مكانك فلقد جرأكم على أسيادكم ..

ظلت المرأة مكانها ولم تبرحه .. وعاودها النحيب والولولة .. مددت يدى لأجذبها فطوحت يدى بعنف وقوة لا توحى هيئتها بها وقالت :

ـ أمض الى سبيلك ودعنى معه فى رحلته الأخيرة ..

وظلت تردد : من للفقراء بعدك يا السيد ؟

فسحبت نفسى ، وأنا ضائق النفس ، مغموم الفؤاد ، ولم أقو فى الحقيقة على الترحم على الرجل الذى أشرف على جنازته وتوديعه .

* * *

ـ ٢ ـ

لم تقو على ابعاد صورته ، وعجزت أن تنحيها بعيدا ٠ الصورة ترمى ظلالها وألوانها وخطوطها ، وتسيدت الصورة فضاء العقل واستحوذت عليه ٠

قسا الزمان عليها وانتهى الأمر ٠

سارت فى الدرب المعتم ولم تقو على الرجوع ٠ لم يجىء الأمر على هواها ، وانما حل كبركان انهارت أمامه وأحـــرفها ٠ كانت النفس تتوق الى عالم لم تعرفه ، وحياة لم تألفها ٠٠ فالدنيا لم تعطها شيئا ذا بال ، ولم تفتح أمها العجوز صندوقها يوما لتشترى لهـا ثوبا جديدا ، أو تعلق على صدرها عقدا من الكهرمان المخضب بالدم ٠ فكم حلا فى عينيها وهى تراه يلتف حول الرقبة وينطرح على الصدر كحبات عنب حمراء تتشهى القطف ٠ والأم ـ من شدة الحاجة ـ تصر المال فى الكيس ، وتضعه فى الصندوق ، وتحتفظ بالمفتاح فى تكة السروال الطويل ٠٠ وترمقها وهى تحدق فتنهرها فى حدة ٠

ـ أنت عفية ، وتستطيعين أن تدبرى أمر نفسك ٠٠

وتضع يدها على خدها المتغضن وتقول :

ـ حتى لا تحتارى عندما أموت ٠٠ ما فى الصندوق لخرجتى ، وما بقى خذيه ٠٠ انه لك ٠٠

لم يبق لها الا أن تروح من بيت الى بيت ، عليها أن تستثمر عافيتها وشبابها ٠ كانت العيون ترقد عليها ، وهى تتخطى العين ، بالقفز ، والبسمة والضحكة ٠٠

كيف لها الآن أن تستعيد الضحكة والخبر نزل عليها ثقيـــلا كصخر الجبل ، لزجا كطين البرك ٠

ظلت تدور فى المكان كملسوع ٠ والصورة تغطى على البصر ، وتشغل العقل ٠ كيف يمضى بهذه السهولة ؟ ٠٠ كيف يفارق من ظننته قائما ؟ ٠٠ قد يكون جسمه أصابه الضعف ولكنه كان يحمل قلب فتى ٠ قد تكون العين قد تهدل جفنها وارتخى ، ولكن البريق كان يخترق كل شىء ٠ من يقوى على بريق السديد ولمعة عينيه ٠

كل شىء يهون ياصابحة ، ولايخسر الانسان نفسه ٠٠ وهل بعد خسارتى فيك خسارة ! أنت الماء والرى ، والشجرة الظليلة ٠

كانت الأبواب المفتوحة قد أوصدت الواحها وأحكمت أقفالها وأدارت خشبها الصدىء لى ٠ ظلت مفتوحة الى أن وقعت الواقعة ٠٠ وتخضبت السماء بدم البنت ، وعلت صيحة الادانة على كل شىء ٠٠ ومضيت أحمل أمرى وأخفيه ٠٠ وكيف يتخفى الانسان وسط عالم تحكمه العيون !

جاءتها رعشة مقذوفة من الصورة ٠ فشملتها حركة غيـــاب قوية ٠ أسندت جذعها ، وتهدم فيها كل شىء ٠ الرعشـــة المباغتة

طرحتها أرضا وسحبت منها القوة ، بحثت عن شىء تضـــعه على جسدها فهوت يدها فى الفراغ وسكنت ·· كانت الرعشة تنفض الجسم وتصك الأسنان ·· وصله الصوت غائما فتحـرك ·· كان منطرحا على الأرض ، وكان مكوما · تلك كانت نومته ، يجمع بين امتداد أعضائه وانكسارها ·· كان غارقا فى النوم ، وبدا وجهـه بالفم الفاغر كمذهول داهمه أمر مباغت · ولاح وعيه مطويا تحت لهاث تنفسه ·

ونادت عليه ، خرج الصوت ضعيفا وباكيا ·

ـ مات السـيد

خرقه الصوت ، فخف اللهاث وصحا الوعى · فرد أعضاءه وأقام جذعه ، دارت رأسه ، ومشت يده تبحث عن شىء ·· نادى عليها فجاوبه أنين كمواء قطة لحظة التهام أولادها · نهض يتخبط حتى وصل اليها ·· جلس أمامها ، وبحث عن رأسها وصـــدرها وذراعيها ، أخذها كلها فى حضنه وزم عليها بشدة ·· كانت تنتفض وتهزه كشلال يهدر ·· ويزداد ضغطه ويتساءل فى صوت مرعوب :

ـ مالك ياصابحة ؟

ويحرقها الحزن فتتلوى فى حضنه عساها تجد مايطفىء النار

ـ مات السـيد

ويزداد ضغطه ، وتدعك كفاه الصدر ، والفخذ ، والظهر واليدين ·· ويشتد زمه لها ، ويهمس فى وجل ورأسه ممدودة فى تخافت كرأس جمل ··

ـ ماذا قلت ؟ ··

ـ مـات السـيد ··

ويدور برأسه ، وينتفض ويرتعش ، ويتعالى من الفكين صوت مجروش ·· ويعلو صدرها فى زمة الضغط القوية ، ويتداخل عنقها بين كفيه ويلوح مهدودا ومعصورا ·

ـ أهو سيدنا الذى نعرفه ! ··

وتفتح فمها ، وتطول أسنانها اللسان فتتأوه ··

ـ أهو السيد الشجرة ، والظل ، وماء العطشان وكسوة العارى

واختلط الصوت بحشرجة خارجة من عمق الأحشاء ، ووافاه الدمع ساخنا ، يتقطر فى عنفوان ارتعاشة الصدر وهمهمته · مدت يديها وأحاطت بوجهه كله ، مسحت دمعه ، وقالت فى حزن ينشع على كل الأعصاب المشدودة :

ـ مضى وخلف فى القلب حزنا دائما ··

ـ ليس الحزن فقط ، وانما اليتم ·

ونهض زاعقا :

ـ هاتى عكازى ··

تحسست يداه الأركان والجدران ، ومواطىء الأقدام ، وصاح فى عويل :

ـ أين عكازى ؟ ··

ناولته عصاه ، فرع شجرة الكافور ، فتحسسه ، لاحت يداه على جلدته تذوب وهى تمر خفية على نتوءات العصا · قربه من فمه وقبله ، وضعه على صدره وأحاطه بكلتا يديه ·· هو فرعه ·· هو نفسه الذى اعتلى الشجرة وقطفه · كان سيدا وهو يصعد ، وسيدا وهو ينزل ، وسيدا وهو يمسك السكين ويشذبه وسيدا وهو يقول :

ـ خذ هذه العصا

والضحكة الملأى بحب غويط تفرش دغدغة على الحس وتقف بين أصابع السيد مترعة بالأريج :

ـ ستعطرك رائحة الكافور دوما

وتلمس يده الذكية ، يده المفرودة المنتظرة عطاء الكريم :

ـ هى عيناك الآن ودليلك ٠

ويضحك ، وتنزل الضحكة على القلب ، قطرة مكتنزة بالرى ، يخضر القلب ، وينبض بعبق الكافور ٠

ـ لن تكون العصا بديلا عن صابحة

٠٠ ويضغط على يدى ويقبض بأصابعى على فرع الكافور ٠

ـ صابحة شجرة الكافور كلها ، دعها فى البيت واستخدم عصاك وامض باذن الله آلى مشاويرك ٠

ويهتز الرجل وأنين صابحة يصل اليه مفجوعا ، ويقبض على فرع الكافور ٠

ـ دعيها تقودنى اليه

ويمضى ، تتدافع خطاه الى الخارج ، تأخذه الأرض ، وتقوده العصا الى البراح حيث يرقد السيد ٠٠ فى داره المترعة بالكافور ٠٠ رقدته الأخيرة ٠٠ ومضى وداخله يمور بانفعال موصول ٠

أهكذا فجأة يخطفك الموت منا ، ولـــم نشب بعد ! كنـــا نحلم ياسيد أن تصل الرءوس بالرءوس ٠٠ استكثرك الموت علينا فأخذك غصبا ٠ أكنت تعلم وتبخل ؟! أكنت تخشى علينا فوقعت قبل أن نتجهز ٠٠ دك العصا فرع الكافور ، وبدت صفحة وجهه مسحوبة الى الأعلى ، وعصابة الرأس مربوطة على عجل ٠٠

٠٠ أحقيقة ما تقول صابحة ؟ ان قلبها طرى يوحى بما لا يحدث . من أخرجها وأقعدها وأسكتها وأوحى لها ؟ أكان الصوت حادا ليصل الى القلب فى التو ؟ فيقيمها ويعلق بصرها بخيط النجوم ويوصلها الرسالة ؟ أوجعت قلبى يا صابحة ، وحملت لى نبأ سيعجل بى .

واستسلم لوجيب شديد يرعشه ويثلج أطرافه ٠٠ وثمة عبق يطوف بأنفه .

حدث نفسه وهو يقبض على العصا أن للكرام رائحة ، وأن المحبين يتنسمون الليل وأن السادة يرفون رفة النسيم ٠٠ تلك روح السيد ٠٠ انها لا تفارق .

ـ أنت يا السيد ٠٠

كان الحزن والصمت يقبضان على النفس والروح ٠٠ والقتامة تمسك بجلد الزقاق تشدد وتجلدد .

انه نفس الزقاق الذى شهد ليلة فرحه ٠٠ وهو نفسه الذى يؤدى به الى رقدة الموت . كان يمر بالبيوت ، ويحس بالنسوة ويشعر بالأطفال وهو يدب بعصاه . كانت العصا غصنا من السنط تقوده الى البيوت صباح الجمعة . يتحسس بالعصا المدخل ويدخل ويلقى التحية . يلمس الجدار ويركن العصا ، ٠٠ يجلس ويشبك ساقيه ويحكم الثوب ويبدأ . كان صوته مرتبا ولكنه خشن . لم يعرف عنه أن له أسرة ولم يهتم الناس بأصله ولكنهم عطفوا عليه وتركوه يقرأ القرآن وفى المواسم يعطونه الذرة والقمح . درب أذنه على التقاط الأصوات وتمييزها خاصة النساء ٠٠ ولكنه هذه المرة جاءه الصوت على غير ما توقع ٠٠ كان الصوت غريبا لم يتعود عليه . ولم يتعامل معه يوما ٠٠ توقف لحظة ٠٠ وأخذه صمت ساكن ـ لم يقتنع بأن ماسمعه صوت حقيقى ، خبط بعصاه ومضى ٠٠ ولكن

الصوت تبعه ·· فتوقف واستدار ، رفـع رأســه وانتظر · كانت صاحبة الصوت تطلب منه أن يدخل ويقرأ ··

·· أدخل وأقرأ !! أليست صابحة ؟ أليس هذا صــوتها ؟ ·· لم هو منطفىء على غير العادة ·· يقولون أن الصوت فيها لــه طراوة المخمل وبحة الفنج ·· أيمكن أن تدعونى لأقرأ ·· صابحة تدعونى لأقرأ القرآن !

واستعاذ بالله وظل واقفا ، ولكنها أقدمت عليه ، ومسكت بيده، فلم يكن يعرف يوما طريقه اليها ·· ولم تستطع العصا أن تتعرف على المدخل ·· كان الدليل عصيا هذه المرة ·· والقلب معتكرا ·· فما عرف يوما أنها تهتم بذلك ··

الله يهدى من يشاء ·· فمن يدرى لعل الله أذن لها ·· وكيف لاتطلبه والسيد يزورها ويعطف عليها بل ويرقد عندها أحيانا ·· والسيد سيد ·· السيد سيد ·· ولكنه مات ·· كان يفعل كل شىء وهو سيد ، يحتار الناس فيه وهو سيد ، ويرتاح الناس عنده وهو سيد

ـ انت يا السيد

·· كانت الحياة غائبة فأقدمت ، وصـــدحت فى الأفق طيور مرفرفة ، وانبثقت الرائحة من سيقان الذرة ، والبرسيم الأخضر ، والماء المنساب ، وطالت غبار الحـوافر ·· حتى وصــلت الى ·· أحسست به قبل أن يأتى ، فقد سبقه العبق الذى لا يغفله أحد ·

كانت أصابعه تفرش طراوتها على كتفى حين انتحى بى جانبا ، فمشى الدفء يدغدغ كل شىء فى ·· من أين يأتى بهذا كله ؟ من أى نبع ينساب دفؤه حتى يصل الى عمق المشاعر ، فتتخدر بالملمسة ، وبملامسة الكف ··

هذا هو الرجل ! لا أذكر ان أحداً وضع يده على كتفى ·· أو أحاطنى بالذراع القوى العفى ·· وضمنى ضمة جفلت منها وقال فى نداوة صوت البلابل :

ـ أبشر ·· فلقد اختارتك ··

وتلوى جسدى كله وظللت أمد فى رأسى وأهز عصاى جافلا ·

ويقول فى تندر محبب يصيد الضحكة الغائرة :

ـ ماكنت أعرف أنك صائد ماهر ··

ويضحك ، والضحكة الرقراقة ترطب الأذن ·· ولكننى مذهول غارق فى عبق الرائحة ، وطراوة الصوت الضاحك ··

ـ السيد هو الذى يكلمنى !

ـ عينه ·· عين السيد ·

ـ ولكنك تلغز معى

ترى ما وراءه ! ان شيئا يحدثنى أن أمرا جللا سيحدث ··

··· ولكنك يا سيد مت · وخلفت فى القلب الجفاف

وكيف يموت من يبذر الحياة ، ويغيث المكروب ، ويأخذ بيد الأعمى ويحتضنه بالذراع القوى العفى ·

ويأخذه الزقاق مضـــروبا فى الجدران والحفر والروث ·· ويتكرم على نفسه وتنسكب الدموع ويتحرك اللسان بالتلاوة طائعا حزينا ·· ثم يهمس همسة مشبعة بجوف مرتعش ·· من لنا بعدك يأخذ باليد ويفرح القلب ويدخل عين الأمان ··

وحين وصلنى صوته يحمل التماس المطمئن

ـ أنا ·· جئتك فلا تردنى

هدر صوتى فجأة ، كأنما أجود بحياتـى فى لحظة انتشـــاء حقيقية ٠

ـ لا كان ٠٠ من يرد السيد ٠٠

ويمضى بى ، يأخذنى هذه المرة من يدى ٠ يتأبط ذراعى كله ٠ ماله لا يكتفى بالجزء ويصر على الكل ٠ وتتداخل الطرق على طرف العصا ، ويمتد بى الخطو ، حتى بدأت أحس بالفراغ ٠٠ بســـاحة لانهائية ، وهبات الهواء تنعش فحدست أننا ٠٠ أننا !! لا يحق لى أن أتداخل مع السيد ٠ يجب أن يظل فردا بذاته ، لايتعكر بأحد ، هو يحتوى ونحن ننضوى ٠٠ هكذا يستقيم الأمر ٠٠ وكان يجب أن يفهم ذلك العمدة وشيخ الخفر وغيرهم حتى يستريحوا ٠٠ ويقفوا على الصراط الفاصل بينه وبينهم ٠٠

أدركت بالحس أن الحقول تنبسط أمامه ، والأشـــجار تحف به ، والأرض تأتى اليه والزرع يواتيه ٠٠ جلس على الجرف وأقعدنى بجانبه ٠٠ لو أننى تمنيت الرؤية ماتمنيتها الا هذه اللحظة ! ترى ماذا يقول الناس والسيد يجلس معى وذراعه فوق الكتف ، نسمع صوصوات العصافير ، وخبطات الطيور ٠٠ أخرج قطعة من السكر وألقمنى اياها ٠ أبدا ما ينقطع نداه أبدا ٠٠

ـ أنت تعرف أن القلب وما يهوى ٠ وليس عيبا أن تختار المرأة زوجها ٠٠ وقد اختارتك ٠٠

ـ من هى ؟

ـ صابحة ٠

وتقف فى حلقى قطعة السكر ٠ كانت الحلاوة فوق مااحتمل وجسده رابض بجانبى يشع من حولى ارتعاشات مسكرة ٠ والفؤاد فى داخلى يخفق ويتلاطم موجه ٠ كنت أود أن أتكلم ولكنه سبقنى ٠٠

.. سبقنى السيد وفاجانا .. فاجانا ومضى

ـ هى طيبة القلب .. احكم على القلب ولاتتعجل المشاعر .. القلب هو المضغة . وكل ما عداد زوائد .. فلا تجعل الزوائد تصرفك عن الأصل .

ـ ولكننى حتى اللحظة .. لا أدرى عم تتكلم

ـ عن صابحة أتكلم .. أختارتك زوجا ..

انها السكن لك باذن الله ..

ـ ماذا يقول الناس عن أعمى يتزوج من صابحة !

صابحة يا السيد ..

واسمع صوت ارتطام الماء ، وطقطقة الأسنان ، ودمدمة كلام معصور فى حزن صادق يأتينى من السيد ..

ـ ماظننتك قاسى القلب هكذا .. أ أنت قابض رحمة ربك !

وارتج ، أرتج بكل داخلى ، أنا ، العبد الأعمى الذليل ، أقبض رحمة بى ! أنا الذرة الضئيلة المنعدمة !

ـ حاشا لله .. ماقصدت ولا خطر بالبال

ـ ألا تحب أن تكون مرفأ العباد ، وحبل الرحمة الممدود

ـ ومن لايحب يا السيد ..

وأصمت ، ساكنا ، ويلبد فى الصدر قلب الأعمى البصير .. ومن لايصمت فى حضرة السيد ، وأجدنى مدفوعا بلسان لم أدفعه ، أقول :

ـ يا السيد .. أتبارك الأمر ..

ـ لقد باركك الله حين قبلت ، فليس افضل من رجل يستر امرأة ٠

٠٠ ولكنك حين رحلت كشفتنا ، اخذت منا الرداء والكساء ، وأبقيت القلب عاريا ٠٠ فهل تواتينا الأيام بعدك ٠٠

ـ وبيدى أنا سأزفك ، وبمشيئة الله ستنال الخير ، ويتوافر عندك كل شىء ٠٠

لو أقوى على قبض الزمان ومسكه ٠٠ لظلت اللحظة متواجدة فى قلبى الى أن أقبض ٠٠ لحظة أن خلع على ثوبه ٠٠ من كان يطمع فى هذه الخلعة ٠٠ ولقد جرى اليها الرجال والمريدون بل والنساء أيضا ٠٠ أهو يخصنى بها ! أيترك وديعته فى الأعمى ! أم هو اصطفاء ٠٠ أو عطف ٠٠ هذا الذى يغمرنى ويشمل جسدى ليس ثوبا ٠٠ انه الفيض ٠٠ أيمكن أن ينتقل الى !! وهل أقوى عليه !

ـ أريدك بعدى قويا مهابا ٠٠ ياربيع

ويقبض على يدى ٠٠ ويسرى الدفء الراعش الى القلب ، فاحتار كيف ألمه ! هذا السيال المتدفق يخترق القلب ويفيض ٠

ـ تنبه الى أن معك جوهرة ٠٠

٠٠٠ وتتراشق العصا ، والخطو ممتد ومتعثر ٠٠ والزقاق ينطوى ، والقلب يرتجف ، والبراح يطل على صفحة الوجه نسمة حزينة ٠٠ ويقف على عتبة البيت ، وتأتيه الرائحة ، ويدخل ، ويعرف طريقه ٠٠ ويقعد القرفصاء ، ويداه تعصران العصا فرع الكافور ، ويتدلى رأسه ٠٠ ويهب عبق الزعفران من الجسد الطاهر ٠٠ ويتمتم فى حدة ٠٠ أنت يا السيد تموت !! ويشرع فى تلاوة القرآن ٠٠

* * *

- ٣ -

لو باحت لقلبت الدنيا · من يصدق ما جاء فى الحلم ؟ بل من يصدق أنه هو ·· هو نفسه لم يتغير ولم يتبدل ، وجهه ، عيناه ، ذقنه المدببة ، وشعر رأسه المفلفل ··

جاءنى والبسمة تفرش وجهه كله ، وأسنانه البيضاء تلمع ، وغيمته فرح تقطر من عينيه · مد يده فلم أقو على الرفض · من يرفض له يدا ممدودة ؟ ·· وأخذنى ··

كان المكان جبليا ، والطريق الى منتهاه صخر مدبب ودرجات مرصوصة فوق فراغ هائل · كادت قدماى تفلتان · ولكن قبضته المحكمة أسرتنى وجذبتنى وصعدت بى الى أعلى ·

كان النور يفيض على المكان ، وثمة شعاعات بيضاء كالفراش الطائر تتراقص ، وتتلاحق فى الوهج ، والندف البيضاء المتسربة تتساقط كالندف الثلجية البيضاء عند المنحدر · وفى الجانب الآخر يترجرج سطح البحيرة بفعل هبات ريح رخية ·

لم تخطىء العين منظر الطيور البيضـــــاء ، والرمادية ذات الحزام الأخضر عند الصدر ، وهى تحوم فوق البحيرة ثم تغوص كسهم الى القاع ·· ثم تعود من قلب الماء ، يتطاير الرذاذ من خبطات الأجنحة كأنه رشاش نور يبهج النفس ·

كان كل شىء يجلب الفرح ·

ومن منا لا يعشق الفرح ولو على الحافة ؟!

وكان وهو يمسك بيدى يشعرنى بمسرى النور الألق الذى يغلف المكان ويحتويه وينسرب داخلى شيئا فشيئا حتى خشيت على نفسى أن أشف ، فأخف ، فأذوب وأتلاشى · ولولا انقباض أصابعه على كفى لما أحسست بنفسى جسدا وجرما ·

كنت مبهورة بما أرى ، ونحن فى طريقنا الى المنحدر · وهمست فى سكون :

ـ الى أين ياسيدى :

ـ الى البحيرة ·

ـ ولم يا سيدى ؟

ـ لنغتســـل ··

وترقرق وجهه الأشهب فى بسمة مترعة ببهاء نادر

ـ نغتسل يا أم البنت ··

وقلت فى ضحكة خجول ، وأنا أوحى له بأن الأمر لا يستدعى ذلك كله ، وأن الزمن غير موات فى هذا الدفق النورانى الفياض ·

ـ ليس وقته ياسيدى

قال فى حسم ، وعيناه ترقصان بالفرح :

ـ بل هو الوقت المناسب ·

كان اذا قال ، فعل ، وحسم ·

حوم الطائر الأبيض فوق رأسى وطار ، ثم حط فوق كتفيه ، فامتدت يده تداعبه ، فزغرد الطائر ، وخذق بجناحيه ، ثم انتفض وغاص فى الماء ·

وفجأة هب على المكان صحوة ندية ، فجرى الدفق الحيوى ، فار ماء البحيرة ، وتصاعد بخار أبيض كاللبن ، وتراقصت فروع الأشجار البعيدة وتماست ، وانبسطت الحشائش الخضراء نسيجا مخمليا رابيا حين مشت عليه ريح رخاء ·

تقاطر الخدر الهوينى فى عروقى ووصل الى عصب الحس · فشعرت بروحى رهيفة لطيفة ، طيعة ، حتى لتكاد تطير بى ، منفكة من ثقل الاسار · ولاح لى هذا الجسد ـ جسدى ـ المبروم ، المكتنز ، المنحوت المصقول اللامع ·· ورقة خضراء على غصن ندى ، شعاعا نيرا من حزمة ضوء منبثة فى الكون ·· موجة تتداخل فى عمـــق الموج ·· فراشة تتخطر على وريقات الزهور ·· واقترب منى · حين لاصقنى ، احتضننى ، ومسح وجهى وجبهتى ، وأطبق عينى بمس الاصبع · وضغط الأذن بهمس الفرح ··

رأيت جوقة من الطيور تغنى ، وحزمة من الانغام تنساب فى المكان ، فى رقة ماء جدول داعبه نسيم رفيق ·

بدا لى أن كل شىء يشعر بكل شىء ، فى تواصـــل ممتزج ، ويستمتع بكل مايتراءى · الكل ممتع ومستمتع ، فى اندماج موصول ·· الماء والأرض ، الشجر والانسان ·

وسحبنى من يدى ونزلنا · ونامت أصابعه على كفى فى نعومة عذبة · ولامست الأقدام صفحة البحيرة ، فجرى الماء يختلط بالمسام حنونا وصديقا · أحسست براحة نفسية ، واطمئنان قلبى ، لم أذكر أننى مررت به بعد انجابى البنت ·

ظل يجذبنى وأنا أتهادى معه ، كل جزء فى يتهادى معه ، ومن لا يتهادى لمن يأخذه الى الفرح والنشوة ؟ !

ويأخذنى والماء يعلو ، يميل بى والماء يعلو ، كان يعلو ويعلو فى دفء وحنان حتى كادت ساقاى تختفيان ··

ولما خلعت القدم لأخطو به خطوة أخرى فى اتجاه العمق ، شاهدت عيونا مبثوثة تحت سطح البحيرة ، كالأصداف خرج منها المحار · مظلمة بدت لى العيون تحدق ، وظلت الرموش واقفة منتصبة ، وكأنما تنتظر وقع القدم الآتى ··

ثقل جسمى ، وانضغطت روحى ·· وارتجفت من ظلمة العيون ـ الأصداف · وقف القدم ، وتصلبت الساق حتى بدا كالخشبة الجافة ·

وعاود الجذب فامتنعت ، الى أين يمضى بى ؟ ·· حاول ، فاستحثثت قوتى على الصمود · لكنه ألح · هذه المرة كانت رغبته قوية ، كان يود لو يأخذنى معه ·· أن نغوص معا الى القاع · بدت اللمعة فى عينيه تغطى على الضوء نفسه ·

ولكننى قاومت ·· جذبنى فدفعته فى عنف ·· كان العنف الأول معه ·· ورق له قلبى وهو يتخلى عنى · كدت أرمح اليه ، لولا أنه مد يده وقرصنى ، كانت القرصة مصوبة الى أعلى الفخذ ، كاوية كالنار · ولما صرخت ، ولما ناديته ، ولما دعوته ليتمهل ، ·· كان قد غاص فى البحيرة ·· لم يعد له وجود ، ظللت انتظر أن يطفو ،

أو يلوح منه شىء · تمنيت أن يعود ·· وباء انتظارى بألم فى القلب ووجع فى النفس ، وحرارة فوق الفخذ ·

وحومت الطيور فى وداعة ، كأنما تزفه ، وسكن ماء البحيرة ، كأنما يلفه ، وكانت القرصة تؤلمنى ·

لا أنسى وهو يغوص ، كيف ظهرت عليه علامات اطمئنان صافية فالتوى قلبى ، حين تصورت أنها المرة الأخيرة التى أراه فيها ·· وخيل الى أن صوتا بعيدا يتناجى ، مذكرا اياى بالبنت ويوصينى بها خيرا ·· فهى العلامة عليه ··

كانت عينه حزمة نور وهو يغوص ، ولحيته خيوط ضــــوء منعكسة وشعره المفلفل صدفات سمك فضية · وكان الماء صـــــديقا وودودا · جذب الماء القماش فذاب وتموج · العين كومــة نور · والعين غيمة فرح ·

والدمعة ساخنة كالصهد ··

وعدت أصعد المنحدر ·· بعد أن استراح ـ ولفه الموج والضوء والقاع والعدم ·

* * *

عرف الخبر ، وانتهى الأمر · مات السيد · وزلزلت البلد وحط عليها هم ثقيل · هرع الناس الى الدار تسبقهم عيونهـــم القلقة ، وتنفضهم قلوب لا تصدق أن الموت فاجأه · وامتلأت الساحة وغص المكان بالأجساد اللزجة ، والأنفاس المتعبة ، والنفوس الموجوعة ·· وانكفأ البعض اعياء فى حين أسند البعض الآخر الجذوع المرهقة الى حيطان تصطك ، حتى بدا الهول يمشى وسط الناس وبين الأزقة ·· والعيون لاتصدق حتى الآن أن الموت قد طاله ونفذ سهم الله فيه · ·· وهرول المنادى ، وهو ينهال على « الطبلة » بلسعات صـــارخة يتمزق لها الجلد ويتألم ··

كان صوتها مباغتا ، فالتوت الرءوس وانسحقت القلوب كلما رن الصوت وطاف الصدى · وصلت لغة الطبلة الى الأعماق ، أطلقت مقذوفها فتمزق الهواء واخترق الصدر · كانت لغة كالنصال تمشى على وجه الصمت تقطيعا ، وعلى وجوه الناس صفعة ألم حادة · علا الصوت فحرك الهواء الراكد وحمل الرسالة ، ومشى بها ، وعلقها فى كل أذن · مات السيد · فى خفوت راجف كارتعاشـــة غمامة طيرها الريح انساب عويل النساء متقطعا ، خافتا ، مدمدما ، ومكتوما ·· بدا كما لو كان طبقات حزن مترسبة فوق الصدور ، لكل طبقة صوتها · وترنحت الصدور تحت صدى رنين دقات الطبلة ·· وكان صوت المنادى يتعالى فى ارتعاشة خافقة ·· وهو يعلن للناس موت السيد ·· وهو يطوف بالبلد ·· اليوم فريد من نوعه ·· فقد مات الرجل ·· انتقل الى رحاب الله ، واحد من خيرة الأنام ·· كان

يجوع ليعطى المساكين ·· وكان يسهر لينام الحيارى ، ·· أراح القلوب المتعبة ، والنفوس الضالة ، وسار فى الناس سيرة الأولياء الصالحين ·· نزل بنا الموت وصعد هو ··· فلقد كان محبا لله ، فأحب الله لقاءه ·· طوبى للصالحين ·· (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ··) طوبى لمن وعدهم الله بالجنة (وما عند الله خير للأبرار) · ومضى يردد : الموت راحة المؤمن ·· الموت راحة المؤمن ·· وبدأ صوته يعلو ويحتد ، فى تهدج مرتجف : ـ انهدم الجدار فلا جدار ·· يامؤمنين وحدوا الله ·· الحاضر يعلم الغائب ·· مات السيد ، سيد الرجال وآخر الصالحين ·· والصلاة عليه فى الجامع الكبير · والدفن بعد الصلاة ·· ولاحول ولاقوة الا بالله ··

·· لملمت البلد أطرافها ، وأكبادها ، واتخذ الرجال سمت الحزن ، وتمسكوا بملامح تعسة تشى بهول جائح ·· كان السيد فردا قد زرع ذكره فوق الشفاه ودخل لابدا الى القلب ، فتوجعت نفوسهم ولم يغب عنهم هذا المعنى ·· فظلت رءوسهم تطول الى أعلى وتنحط الى أسفل ·· كانت الحركة تحمل عبئا ضاغطا لا يقوون عليه · وتداخل القادمون مع الجالسين ·· فى انتظار الدفن ، العيون مسبلة ، ومنداة بذكرى السيد · فقد كفاهم غناه حتى ارتووا بالرغم من أنه كتم الحسرة فى قلبه ومضى بها ·· والقلوب تتدافع فى الأحشاء بفعل السيد ·· فلقد زرع فيهم بذرة شجاعة طمرتها رقائق العجز وشرائح الخلاف ·

كان العويل ـ والهسيس ودقات الطبول غيمة من الصخب الحزين ·· وكانت حبات طيور ملهوفة تحوم فى السماء لاهثة متدافعة ثم تنحط فى سقطة متهاوية فى الجانب الآخر على أطراف أغصان أشجار السنط ·

محمد قطب

سبتمبر ١٩٨٩

صدر للمؤلف

- الخروج الى النبع (رواية)
- من يقتل الحب (قصص قصيرة)
- المـــدار (مسرحية)
- قراءة فى القصة القصيرة (دراسة)
- محمود البدوى (دراسة)
  عاشق القصة القصيرة
- نظرات فى قصص القرآن جـ١ (دراسة)
- نظرات فى قصص القرآن جـ٢ (دراسة)
- نظرات فى قصص القرآن جـ٣ (دراسة)
- من جماليات التصوير فى القرآن (دراسة)
- الفن والبساطة (دراسة)
  قراءة فى القصة القصيرة عند ثروت أباظة

كتب تحت الطبع

- من جماليات التصوير فى القرآن جـ ٢ (دراسة)
- الضوء والظلال (رواية)
- المحاكمة (مسرحية)
- عيون البنت الصغيرة (قصص قصيرة)
- انكسار الضوء (قصص قصيرة)

رقم الايداع ١٩٩٣/٥٠٨٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3412 — 0


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET